

كيفية تشكيل الصراعات الحالية لمستقبل سوريا والعراق

براين مايكل جينكينز (Brian Michael Jenkins)

قدَّم الكاتب ثلاثة أبحاث سابقة لمؤسسة RAND اهتمت بدراسة الأبعاد المختلفة للصراع الحالي في سوريا. تناول البحث الأول منها ديناميكيات الحرب الأهلية في سوريا، وتحديداً التطور الذي شهدته المعارضة المسلحة لحكومة الأسد ونتائج الإستراتيجية الحكومية لمكافحة التمرد. وجاء البحث الثاني لينظر في الانقسام الواقع بين العناصر الجهادية في المعارضة المسلحة ومقارنته بالانشقاقات التي شهدتها الجماعات المسلحة الأخرى. بينما تناول البحث الثالث التهديدات التي يشكلها آلاف المقاتلين الأجانب لجذب تشكيلات الجهاديين في سوريا والعراق، والنظر في سجل الأمريكيين الساعين وراء تلقي التدريبات من الجماعات الجهادية بالخارج أو الانضمام إليها.

يدرس هذا المقال الكيفية التي ستتشكل بها ديناميكيات الصراعات المستمرة مستقبل سوريا، والعراق، والمنطقة الأوسع نطاقاً. وتشير الاستنتاجات إلى وجود فجوة كبيرة بين الأهداف الوطنية الأمريكية والتقدير الواقعي للوضع الحالي.

وقد شهد استمرار القتال تناقص قوة المتمردين العلمانيين في سوريا وصعود العناصر الجهادية الأكثر تطرفاً، والمتمثلة في الدولة الإسلامية في العراق والشام. وبالرغم من الحرب المفتوحة بين الدولة الإسلامية في العراق والشام والتشكيلات المتمردة الأخرى في سوريا، إلا أن الدولة الإسلامية كانت قادرة على فرض سيطرتها على جزء كبير من شرق سوريا وغرب العراق، الأمر الذي استدعى القصف الأمريكي. وقد توسعت حملة القصف لتشمل تحالف دول الغرب ودول الشرق الأوسط. ونتيجة لتلك الحملة، عانت الدولة الإسلامية في العراق والشام من بعض التراجعات العسكرية وفقدان المناطق المسيطرة عليها؛ ولكن كان بمقدورها أيضاً السيطرة على العديد من المدن الرئيسية في العراق وسوريا، واستمرت في جذب عدد كبير من المقاتلين الأجانب. وزاد التهديد الذي تشكله الدولة الإسلامية في العراق والشام، إلى جانب حالات الاستقطاب المستمرة للداعمين من الخارج لتنفيذ العمليات الإرهابية، من الضغط على الولايات المتحدة لنشر قوات برية أمريكية مقاتلة.

تتسم حالة الصراع في سوريا والعراق في الوقت الحالي بالجمود؛ فالمدن قد تسقط أو تُعاد السيطرة عليها، ولكن لا تتحرك "الخطوط الأمامية" إلا بشكل هامشي. ولن يكون بمقدور المتمردين في سوريا والعراق التغلب على حكومتي دمشق وبغداد، كما لن يكون بمقدور حكومتي سوريا والعراق استعادة نفوذهما في جميع أنحاء أراضيهما الوطنية.

إن الانقسامات الطائفية والعرقية هي غالباً ما تحرك الصراعات بأكملها. وفي الوقت نفسه، لا تزال الصراعات الضارية مشتعلة بين الجهاديين وغيرهم من التشكيلات المتمردة ذات الدوافع الدينية.

تفشل الجيوش الوطنية وتتحول القوة إلى الميليشيات، التي تكون قادرةً على الدفاع عن المقاطعات العرقية والطائفية، ولكن بقدرة محدودة على تنفيذ العمليات الإستراتيجية خارج أراضي الوطن. ويؤدي هذا التحول، بدوره، إلى إضعاف سلطة الحكومة المركزية.

خضعت سوريا والعراق للتقسيم الحقيقي، ومن المرجح أن تستمر حالة التقسيم التي تخضعان لها. يعمل الأكراد على ضم أراضيهم وتوحيد مقاطعاتهم المنقسمة بين سوريا والعراق، وإرساء أسس الدولة المستقلة في المستقبل، بالرغم من عدم إفصاحهم عن نيتهم بذلك. وبالرغم من أن الأكراد يثبتون كم هم مقاتلون ذوو فعالية عندما قدَّم لهم التحالف الدعم عبر القصف، إلا أنه من غير المحتمل أن يحرزوا تقدماً تجاه المناطق الخاضعة للسُّنة. وقد تخلَّت الحكومة السورية إلى حد كبير عن المناطق السُّنية من البلاد، وتزيد من جهودها المبذولة في الدفاع عن معقل الطائفية في غرب سوريا. ولم تُظهر الحكومة التي يسيطر عليها الشيعة في بغداد قدرتها على التغلب على العديد من أهل السُّنة في العراق، وسوف يقيد ذلك قدرتها على إعادة الاستيلاء على المدن والبلدات التي يستحوذ عليها تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام. وسواء كانت الدولة الإسلامية في العراق والشام، بالرغم من حملة القصف وبعض الضغط الذي تمارسه القوات العراقية، قادرة على توحيد الدولة وتصبح ممثلاً سياسيًا رئيسياً للسُّنة في سوريا والعراق، أو بدلاً من ذلك تصبح الأراضي السنية القاحلة مناطق تشهد الحرب بين القوات المتناحرة وتستمر إلى أجل غير مسمى، فهذا ما سنعلمه لاحقاً.

من المتوقع أن يستمر القتال في المستقبل، بعد أن ابتعد النزاع قليلاً عن المنحى السياسي وأصبح مرتبطاً بشكل أكبر بالجانب الوجودي للمشاركين. يتوق العالم لإحلال السلام، ولكن لا يمكن لأي من المحاربين أن يتخيل البقاء حياً تحت إمرة أعدائهم. لقد ابتعد القتال عن الأهداف السياسية وأصبح كترس،(كمحرك ميكانيكي يعشق التروس للعجلة)، حيث أصبحت الحرب دوامة عنفٍ وانتقامٍ مستدامة آلية.

لقد أصبح للقوى الأجنبية في المنطقة وخارجها نصيب كبير في الصراعات القائمة، ولكن بغياب التدخلات العسكرية المباشرة على نطاق واسع والتي يمكن أن يكون لها أثر مضاد، لا يمكن لأيٍ من القوى الأجنبية ضمان انتصار حلفائها أو هزيمة خصومها. وعلاوة على ذلك، تتنافس مصالح القوى الخارجية بدلاً من أن تكمل كل منها الأخرى.

في مؤتمر الأمن الذي انعقد مؤخراً في أسبن، كولورادو، طُلب من أعضاء اللجنة الممثلين لحكومتي الولايات المتحدة والعراق التفكير في "مسألة ما إذا كان استقرار نظام صدام حسين في العراق القائم على الوحشية باعتراف الجميع ونظام الأسد في فترة ما قبل الثورة في سوريا أكثر انسجاماً مع المصالح الأمريكية أم لا، وما إذا كانت النتيجة الأفضل لذلك الآن أقرب قدر الإمكان إلى *الوضع السابق*."[1] ومع ذلك، اتخذت المناقشة اتجاهاً مختلفاً. وأياً ما كان الرأي الذي يعتقده الواحد منا، لم يعد ممكناً الرجوع إلى *الوضع السابق قبل الحرب*.

تابع المقاتلون الأجانب توجههم إلى سوريا للحاق بصفوف الجهاديين، وبالأخص الدولة الإسلامية في العراق والشام، التي أعلنت فرصة بناء "دولة إسلامية" حقيقية وفرض العنف غير المحدود. وبالرغم من أن التهديد الفوري الذي شكله المقاتلون الأجانب ربما يكون مبالغاً فيه من جانب الذين يدافعون عن التدخل العسكري المباشر، فسيظل المقاتلون الأجانب يشكلون تهديداً إضافياً على الدول والبلدان المجاورة. وتربك أعداد الأفراد الراغبين في الانضمام إلى الدولة الإسلامية في العراق والشام أو الرجوع من سوريا والعراق الحكومات في أوروبا.

كانت نتيجة الصراع في سوريا ملايين اللاجئين الذين اقترب عددهم من الذين فروا من أوروبا في الحرب العالمية الثانية. وكلما كان القتال مستمراً، وهو الأمر المرجح، فلن يكون بمقدور اللاجئين العودة إلى ديارهم، ولن تتمكن البلدان المحيطة من استيعاب الكثيرين منهم. وسيظلون عبئاً دولياً ومصدراً لعدم الاستقرار في المنطقة.

باختصار، الصراعات القائمة في سوريا والعراق في حالة جمود، بينما تتزايد الانقسامات الطائفية والعرقية التي تدفع إلى وجود تلك الصراعات. ولا يمكن للجيوش الكبيرة في سوريا والعراق التغلب على التحديات التي تواجه السلطات هناك، وقد تحولت القوة لتصبح في يد الميليشيات. وستستمر الانقسامات في كلا البلدين، ولن يمكن استعادة الوحدة الوطنية بسهولة. ولا يزال مستقبل أهل السُّنة تحت سيطرة الدولة الإسلامية، أو نظام الأسد، أو الشيعة في بغداد أو ككيان مستقل يشوبه الغموض. ويجب قبول حقيقة أن القتال سيظل قائماً، وبدون وجود استثمارات عسكرية كبيرة، فستكون القوى الأجنبية (باستثناء محتمل لإيران) على الهامش. ويشكل آلاف المقاتلين الأجانب الذين جذبتهم شعارات الجهاديين تهديداً طويل الأمد، ولن يكون بمقدور ملايين اللاجئين الفارين من الصراعات العودة طالما كان العنف قائماً. وتتسم تلك الاستنتاجات القاسية بكونها مثيرة للجدل، مع أنها تناقض السياسة الأمريكية.

وتتحدى الفكرة المجرَّدة بدوام حالة الجمود العسكري لسنوات، أو لعقود، شعور أمريكا بالتقدم. وتتسم القيم الأمريكية بالحكم العلماني الديمقراطي والتسامح الديني. تعمل الولايات المتحدة على افتراض أنه يمكن سد الانقسامات الطائفية والعرقية؛ بأنه يمكن إعادة بناء الجيش العراقي الوطني ليصبح قوة قتالية فعالة؛ وأنه يمكن الاستعاضة عن نظام الأسد بحكومة أكثر شمولية؛ وأن أهل السُّنة يمكنهم تحقيق النجاح وعزل الجهاديين ودحضهم؛ وأنه يمكن إعادة إحلال السلام والوحدة الوطنية وتمكين عودة اللاجئين، وأنه يمكن تحقيق ذلك دون التزام عدد كبير من القوات أو حتى مع التزام القوات الأمريكية. ومما لا شك فيه أن هذه الأهداف نبيلة، ويجب أن يشعر الدبلوماسيون بالتفاؤل. ومع ذلك، فإن الأهداف الوطنية يجب أن تكون قائمة على أساس التقييمات الواقعية للوضع الحالي؛ وهنا، تبدو المسافة بين التطلعات المفترضة والواقع الحالي كبيرة.

القتال في سوريا والعراق منذ عام 2013

لقد سعيتُ، في سلسلة أخيرة من أبحاث مؤسسة RAND وعدد من المقالات القصيرة، إلى تمييز الديناميات الكامنة للحرب الأهلية التي تشهدها سوريا، والصراع المتزامن في العراق، والانشقاق الموجود داخل الحركة الجهادية بين تنظيم القاعدة والدولة الإسلامية، والتهديدات الإرهابية التي يشكلها المقاتلون الأجانب الذين انضموا إلى الجماعات الجهادية المشاركة في تلك الصراعات.[2] يرصد "ديناميات الحرب الأهلية في سوريا" (*The Dynamics of Syria's Civil War*) الأحداث التي وقعت حتى عام 2014. يبدأ هذا البحث، وهو الرابع ضمن أربعة أبحاث، بالقتال الذي وقع في عام 2014، ويرى كيف ستعمل هذه الديناميات على تشكيل مستقبل الصراع والمنطقة. كما أنه تقدير للوضع دون أي وصفات سياسية، بالرغم من أنه يثير بعض التساؤلات حول الافتراضات التي تستند عليها الإستراتيجيات الأمريكية الحالية وتوفير البدائل.[3]

إن محاولة تلخيص مسارات الصراعات المتشابكة خلال فترة عام ونصف العام في بضع صفحات يتطلب استعراضها بسرعة كبيرة. ويقتضي الأمر التبسيط والتشذيب بخطوات محسومة، ولكنه ممارسة مفيدة تدفعنا نحو النظر فيما وراء عناوين الصحف اليومية التي غالباً ما تكون مربكة لمعرفة حقيقة الأحداث. فهو لا يقتصر على إطلاعنا على الاتجاهات الأوسع، ولكن حول وتيرة التغيير. كما تنبهنا بشأن حدود القدرة على التنبؤ وتوقع المفاجآت.

ظهور الدولة الإسلامية في العراق والشام

في كانون الثاني من عام 2014، اندلع قتال مفتوح بين قوات جبهة النصرة التابعة لتنظيم القاعدة في سوريا، ومقاتلي الدولة الإسلامية في العراق والشام التابعة لتنظيم القاعدة السابق في العراق. يُطلق أيضاً على الدولة الإسلامية في العراق والشام اسم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا، أو داعش (وهو الاسم المختصر في اللغة العربية، حيث يُشار إلى سوريا باسم "الشام"، أي "الشمال"). تلك المجموعة، التي أظهرت بالفعل أنها نجم صاعد في السماء الجهادية وقوة متنامية في أرض سوريا، تحدَّت قيادة تنظيم القاعدة؛ وقتلت بطريقة وحشية أهل السُّنة الرافضين للخضوع لتفسيراتها للإسلام، والأبرياء من الشيعة الذين ينظرون إليهم على أنهم مرتدون، وغيرهم من غير المسلمين الذين رفضوا تأويلاتهم للشريعة الإسلامية؛ كما أنها نفذت العديد من التفجيرات العشوائية في العراق التي أدت إلى سقوط الآلاف من القتلى. وكما يشير الاسم، الدولة الإسلامية في العراق والشام، فإنه يشير إلى هدفهم في السيطرة على المنطقة وفرض الخلافة على المناطق والأراضي المترامية في العراق وجميع أنحاء بلاد الشام.

وبالرغم من المعارك القائمة مع جبهة النصرة وغيرها من التشكيلات المتمردة في سوريا، تمكنت الدولة الإسلامية في العراق والشام من تصعيد عملياتها في العراق. بدأت العمليات الإرهابية، التي انخفضت وتيرتها كثيراً منذ عام 2008، في التصاعد في صيف عام 2011 حين بدأت القوات الأمريكية في مغادرة البلاد. تزايد الغضب الناجم عن سوء معاملة الحكومة التي يسيطر عليها الشيعة في بغداد لأهل السُّنة،

بالرغم من المعارك القائمة مع جبهة النصرة وغيرها من التشكيلات المتمردة في سوريا، تمكنت الدولة الإسلامية في العراق والشام من تصعيد عملياتها في العراق.

الأمر الذي أعطى المتمردين والجهاديين من أهل السُّنة فرصة استقطاب أنصار يمكن استغلالهم. استمرت أعمال العنف في الزيادة في عامي 2012 و2013، الأمر الذي يشير إلى تزايد قوة المقاومة. وبالرغم من أن نظام بشار الأسد قد أتاح للدولة الإسلامية في العراق والشام ملاذاً آمناً في منطقة وسط وشرق سوريا منذ عام 2004، إلا أنها عام 2011 اتجهت نحو عمليات جمع التبرعات السابقة وتعاونت مع الميليشيات السُّنية الأخرى للإطاحة بالرئيس الأسد.

في كانون الثاني من عام 2014، سيطرت قوات الدولة الإسلامية في العراق والشام على مدينة الفلوجة ودخلت مدينة الرمادي ومدناً أخرى في محافظة الأنبار، التي كانت إحدى معاقل المتمردين خلال "الحرب على العراق". وتمكنت قوات الحكومة العراقية من استعادة مناطق كثيرة من مدينة الرمادي، ولكن سيطرت الدولة الإسلامية في العراق والشام على مدينة الفلوجة. وفي حزيران من نفس العام، اجتاحت قوات الدولة الإسلامية في العراق والشام شمال العراق، واستولت على مدينة سامراء في 5 حزيران 2014؛ ومدينة الموصل، ثاني أكبر المدن في العراق، في 10 حزيران؛ ومدينة تكريت يوم 11 حزيران. تابعت الدولة الإسلامية في العراق والشام زحفها في الاتجاه الشمالي الشرقي إلى أن أصبحت في شهر آب على بعد 25 ميلاً من جنوب غرب مدينة أربيل، العاصمة الكردية. وفي أواخر شهر حزيران، استولى مقاتلو الدولة الإسلامية في العراق والشام على عدد من المدن الواقعة على الحدود والطرق الرئيسية بين سوريا والعراق، وهو ما مكَّن قواتها من سهولة الانتقال ذهاباً وإيابًا بين البلدين.

أشار تغيير الدولة الإسلامية للعراق والشام للاسم إلى أهداف أسمى: في 29 حزيران، أظهرت الدولة نفسها بأنها الدولة الإسلامية، وأنها معقل الخلافة في جميع أنحاء العالم التي تفرض سلطتها العسكرية، والدينية، والسياسية على جميع المسلمين في أنحاء العالم. ونصَّب قائد الدولة الإسلامية في العراق والشام، أبو بكر البغدادي، نفسه خليفة للمسلمين. وأنه لن يتبَّع أحداً إلا الله. وطالب من الآخرين أن يقدموا فروض الطاعة. وكان هذا تأكيداً جريئاً منه بأن أغلب السلطات الدينية الإسلامية سوف تعارضه

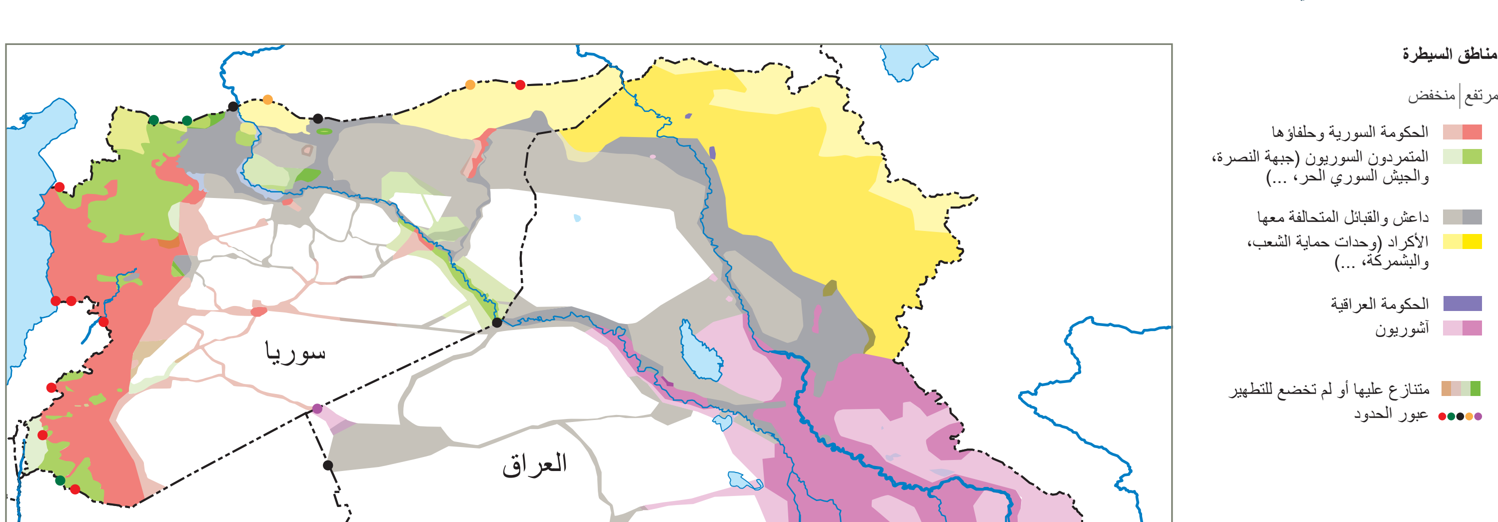
وأن أغلب المسلمين سوف يتجاهلون؛ ولكن مع ذلك فإن الأمر أثار المتطرفين الإسلاميين وشجعهم على الانضمام من إنجلترا إلى إندونيسيا.

صدمة ورعب في الجانب الآخر

تابعت الدولة الإسلامية في العراق والشام عنفها العسكري في العراق خلال شهري تموز وآب من عام 2014، حيث تقهقرت قوات ميليشيا البشمركة الكردية من مدينتي الزمر وسنجار، وتفرق الآلاف من اليزيديين والمسيحيين من اللاجئين عبر الصحراء. تزايد الخوف مما تحرزه الدولة الإسلامية في العراق والشام ومن احتمالية إقدامها على ذبح اليزيديين الفارين، الذين تنظر إليهم الدولة الإسلامية على أنهم كافرون، وقد عزز القصف الأمريكي من تقدم القوات الأمريكية في 8 آب من عام 2014.

إن ما أحرزته الدولة الإسلامية في العراق والشام على أرض الواقع، يبرزه استعراضها للمركبات العسكرية التي تستولي عليها والشاحنات الممتلئة بالمقاتلين الموشحين بالسواد ومقاطع الفيديو التي تستعرض عمليات الإعدام الجماعية، والصلب، وقطع رؤوس الرهائن — هدفت جميع عمليات الحروب الدعائية إلى ترجيح كفة مجموعة على أعدائها وجذب المزيد من الأنصار إلى شعاراتها — قد أثار حفيظة المسؤولين الأمريكيين. وكان الرد الخطابي غير عادي: حيث حذر وزير الدفاع Chuck Hagel من أن الدولة الإسلامية في العراق والشام "تهديد وشيك لجميع مصالحنا..."، و"هذا يتجاوز أي شيء رأيناه. يجب أن نستعد لكل شيء."[4] وقال Eric Holder، النائب العام، إن الدولة الإسلامية في العراق والشام كانت "مخيفة أكثر بكثير من أي شيء شاهدته في فترة عملي نائباً عاماً."[5] وأكد Jim Inhofe، سيناتور ولاية أوكلاهوما، على "أننا نواجه موقفاً خطيراً للغاية أكثر من أي أمة أخرى."[6] وبعيداً عن أي دليل، شرد ذهن بعض النقاد والسياسيين إلى سيناريوهات مخيفة، وحذروا من كونها "وشيكة الحدوث" بأن الدولة الإسلامية في العراق والشام سوف "تحصل على أسلحة نووية، أو كيميائية، أو بيولوجية، أو

الشكل 1. الحرب الأهلية في سوريا والعراق، 24 حزيران، 2014.



غيرها من الأسلحة التي تسبب الموت الجماعي إذا استُخدمت في هجمات ضد نيويورك [أو] واشنطن"، أو أنه ثمة "احتمالية واقعية للغاية" بأن تعبر قوات الدولة الإسلامية في العراق والشام حدود الولايات المتحدة مع المكسيك.[7] لقد مثَّل ذلك صدمة ورعباً في الاتجاه المعاكس.

في الثامن من آب، قصفت طائرة مقاتلة أمريكية مواقع المدفعية وأهدافًا أخرى تابعة للدول الإسلامية حول مدينتي سنجار وأربيل لحماية اللاجئين اليزيديين الفارين والمواطنين الأمريكيين الذين لجؤوا في أربيل. وكان تبرير هذا هو التدخل الإنساني من قبيل أن من يمكنهم منع وقوع المذابح، فإنه يتعيَّن عليهم القيام بذلك. ولا يعكس هذا قرارًا يلائم القوات الجوية في العراق، على الرغم من أن زيادة عمليات القصف كان الهدف منها منع الدولة الإسلامية من تخطي سد رئيسي في شمال العراق. وتوسَّعت العمليات الرامية إلى منع المذابح وحماية المواطنين الأمريكيين إلى هزيمة الدولة الإسلامية في العراق والشام.

استمر الضغط على الإدارة من أجل تنفيذ إجراء عسكري منذ عدة أشهر. ورأى نقَّاد الرئيس أوباما أن قوة الدولة الإسلامية في العراق والشام في تزايد مستمر حيث تمثل نتيجة مباشرة لفشل أمريكا في التفاوض بشأن التوصل لاتفاق مع الحكومة العراقية التي من شأنها أن تحافظ على القوات الأمريكية الموجودة في العراق بعد عام 2011، ولقرار الرئيس بعدم التدخل الذي اتخذه في وقت سابق في عام 2012 وعدم مساعدة المتمردين العلمانيين في سوريا عندما كان ينظر إلى ذلك على أنه إمكانية يمكن للكثيرين تطبيقها.[8] ورأى البعض أن الدولة الإسلامية بوصفها أفغانستان جديدة — ستكون نقطة انطلاق للهجمات الإرهابية في المستقبل على الولايات المتحدة. وأصبح التهديد المستقبلي الذي يشكله المقاتلون الأجانب التابعون للدولة الإسلامية في العراق والشام على الأمن الغربي موضوعاً متكرراً في منتدى أسبن للأمن الذي انعقد في تموز، حيث شهد إجماعاً متزايداً من جانب خبراء الأمن في الولايات المتحدة على ضرورة اتخاذ إجراء عسكري واضح من جانب الولايات المتحدة. في 14 أيلول، حذر Lindsey Graham، سيناتور ولاية ساوث كارولينا، من أن "هذا الرئيس يجب أن يتخذ إجراءات صحيحة قبل أن نتعرَّض جميعاً للقتل في منازلنا."[9]

أشارت الولايات المتحدة، التي عبرت عن قلقها من الأداء الضعيف لقوات الجيش العراقي التي تلقت تدريبات أمريكية وعن خوفها من انهيار المزيد من دفاعاتها، إلى استعدادها لزيادة المساعدات المقدمة للعراق، كما كانت إيران تقوم بذلك، ولكن ليس إلى العراق الذي تديره حكومة Nouri al-Maliki غير الفعَّالة، الذي لا يزال على رأس السلطة في ذلك الوقت. فالمالكي يتحمل مسؤولية استياء أهل السُّنة والفشل العسكري في العراق. فالتغلب على الدولة الإسلامية يحتاج إلى التعاون مع أهل السُّنة. استقال المالكي في شهر آب بعد ما واجهه من ضغوط سياسية دولية ومحلية، وكان منها بعض الضغوط من القادة الشيعة، وجاء بدلاً منه Haider al-Abadi، الذي انعقدت الآمال عليه بأن يتخذ إجراءات أكثر شمولية لفئات من أهل السُّنة والأكراد المنتشرين في المجتمع العراقي. وظل السؤال يرتبط برغبة النظام الجديد الحقيقية وقدرته على القيام بذلك من عدمها، ولكن بعد ما يقرب من عام في منصبه، أحرز العبادي تقدماً لا يُذكر.

وفي الوقت نفسه، أنشأت الولايات المتحدة تحالفاً جمع بين الدول الغربية والعربية التي ترغب في المشاركة، أو المساعدة على الأقل، في الحملة الجوية التي تهدف إلى "تدمير الدولة الإسلامية في العراق والشام بالكامل". بدأت الحملة في شهر أيلول، وتوسعت لتشمل أهداف الجهاديين في سوريا. وفي الوقت نفسه، أطلقت الولايات المتحدة برنامجاً جديداً يهدف إلى إعادة بناء وتدريب أقسام من الجيش العراقي تضم الشيعة، والأكراد، وأهل السُّنة، وألزمت نفسها بإنشاء قوة متمردة جديدة في سوريا من شأنها أن تكون قادرة على إعادة السيطرة على المناطق التي يفرض الجهاديون السيطرة عليها.

لقد ثبت مدى البطء الشديد في تعبئة وتدريب المقاتلين في سوريا الذين سيكون بمقدورهم تحدي الجهاديين، لا سيما التابعين للدولة الإسلامية في العراق والشام، مع احتمال ضئيل لتشكيل قوة معارضة بحجم وقدرات ضرورية لتحقيق الأهداف المعلنة. وبالرغم من أن القوة كان يُفترض أن يبلغ قوامها في بادئ الأمر 5,000 — وهو العدد الضئيل للغاية ليكون منافساً في الصراعات — بحلول شهر تموز 2015، إلا أن عدد المقاتلين الذين بدؤوا التدريب من جانب الولايات المتحدة كان 60 مقاتلاً فقط.[10]

لم تُرضِ تلك الجهود الذين يؤمنون بأنه لا يمكن تدمير الدولة الإسلامية في العراق والشام دون نشر القوات الأمريكية المقاتلة على الأرض، أو على أقل تقدير، المستشارين والمراقبين الذين يمكن أن يعززوا من استخدام القوة الجوية عند دعم العناصر الأمامية من القوات العراقية وقوات البشمركة الكردية. ورغب آخرون في أن تزيد الولايات المتحدة من جهودها لإسقاط نظام الأسد. واستمرت النقاشات حول الإستراتيجية.

وحشية القتال في سوريا

أصبحت التطورات التي تشهدها الساحة السورية منذ عام 2014 أكثر تعقيداً من تلك التي يشهدها العراق. فقد حصد كلا الجانبين، الحكومة وقوات المتمردين، مكاسب وتكبدوا خسائر. كان أكثر التطورات وضوحاً هو ما أظهرته الحكومة السورية من قدرتها على التواجد واستعادة أجزاء من أراضيها تدريجياً. وأعادت القوات السورية، مدعومةً بميليشيات من حزب الله وأخرى تدربها إيران، فرض سيطرتها على مدينتي حماة وحمص، فضلاً عن عدد من المدن الرئيسية على الحدود مع لبنان، وأجزاء من حلب. وكان هذا جزءاً من حملة لقطع خطوط الإمداد عن المتمردين من لبنان وتعزيز السيطرة على المنطقة الغربية من سوريا، حيث الجزء الأكبر من السكان، التي يقطنها في الغالب جميع الموالين للحكومة الحالية.

استمرت قوات الحكومة السورية في الاعتماد على القصف الجوي والمدفعي، مما يتسبب في تكبد خسائر فادحة ودمار هائل. واستخدم المتمردون المدفعية التابعة لهم، بعد عدم قدرتهم على مجاراة الأسلحة الثقيلة التي تستخدمها الحكومة، وذلك بهدف قصف المدن وتنفيذ المجازر والتفجيرات العشوائية. وكان عام 2014 قد شهد مقتل 76,000 شخص في سوريا، ليصل العدد الإجمالي للوفيات في الحرب الأهلية إلى أكثر من 200,000 قتيل.[11] وارتفع عدد اللاجئين السوريين الفارين من البلاد أو المشردين إلى نحو 50 بالمئة من إجمالي عدد سكان سوريا. [12]

شنت الدولة الإسلامية في العراق والشام هجمات في عدة مناطق من البلاد، وتمكنت من الاستيلاء على بعض القواعد العسكرية السورية وبعض المدن التي تسيطر عليها الحكومة. وتمكنت المجموعة أيضاً من تعزيز موقعها في المنطقة الشرقية من سوريا وعلى طول نهر الفرات. وفي شهر آب، تحركت المجموعة ضد المناطق الكردية في شمال سوريا، ولكنها واجهت صعوبة في الاستيلاء على المدينة الأهم، كوباني، على الحدود السورية مع تركيا، وذلك بسبب الضربات الجوية لقوات التحالف والدفاع الكردي الذي عزز من الأمر، وللمرة الأولى شاركت قوات البشمركة العراقية. وبالرغم من أن الدولة الإسلامية قد تكبدت خسائر فادحة، إلا أن قواتها واصلت شن الهجمات على المواقع الكردية ودافعت بضراوة عن مواقعها ضد الهجمات الكردية المضادة. وبالرغم من تراجع مقاتلي الدولة الإسلامية في نهاية المطاف، إلا أن معركة كوباني أظهرت أن استعادة المدن والبلدات التي تسيطر عليها الدولة الإسلامية في سوريا والعراق سيتطلب الكثير من عمليات القتال المتبادلة.

في الوقت الذي أحرزت فيه القوات المشتركة من سوريا، وتركيا، وأكراد العراق تقدماً كبيراً في شمال سوريا، إلا أن الرئيس التركي Erdogan قد هدد باستخدام القوات التركية لمنع مزيد من التقدم للقوات الكردية خوفاً من أن يدفعهم تحقيق النجاح إلى تقديم دعوات في المستقبل من أجل الاستقلال الكردي.

استمرت قوات الحكومة السورية في الاعتماد على القصف الجوي والمدفعي، مما يتسبب في تكبد خسائر فادحة وتحقيق دمار هائل

نقاط ضعف غير الجهاديين

استمر القتال بين القوات المتمردة ـــ لا سيما بين الدولة الإسلامية في العراق والشام والتشكيلات المتمردة الأخرى، التي تمثل جبهة النصرة أقواها ـــ على مدار العام. وقد قُتل ما بين 5,000 إلى 10,000 متمرد في تلك الاشتباكات المسلحة، التي رافقتها عمليات اغتيال للقادة من الجانبين وتشكيلات أصغر قواماً تغير انتمائها باستمرار. كما كانت ثمة محاولات لإنهاء الصراع الداخلي من خلال الوساطة، ولكن استمرت الأعمال العدائية.

جرت عدة محاولات أخرى، بعضها كان مدفوعاً من الخارج، لتشكيل جبهات أمامية موحدة يمكن أن تقاتل ضد نظام الأسد والدولة الإسلامية في العراق والشام. وبدلاً من تحقيق مبدأ "الاتحاد قوة"، استمرت تلك التحالفات في الفوضى وتزايدت نقاط الضعف لدى التشكيلات المتمردة غير الجهادية.

كان الخاسر الأكبر بين المتمردين في عام 2014 هو الجيش السوري الحر، الذي يضم القوات العلمانية والمعتدلة التي يدعمها الغرب. لقد عانت تلك التشكيلات من الهزائم والانشقاقات، وخسر الجيش السوري الحر الأرض التي كان يسيطر عليها طوال العام. وبنهاية العام، استولت قوات جبهة النصرة على مدينة إدلب بعد تغلبها على الجيش السوري الحر الذي أصبح وجوده مقصوراً على مواقع صغيرة في شمال سوريا وجنوبها، وعانى من خطر التفكك، ولم يتبقَّ له سوى بعض العناصر التي عانت معه الكثير. في منتصف عام 2015، كان الجيش السوري الحر قد اختفى تقريباً، وانضم المقاتلون التابعون له إلى التشكيلات ذات الدوافع الدينية الأقوى في سوريا. كانت تلك الأخبار سيئة للولايات المتحدة التي كانت تدعم الجيش السوري الحر.

وبالرغم من جميع حالات القتل والتدمير التي تعرضت لها البلاد، إلا أن خريطة سوريا لم تشهد سوى تغيير ضئيل. تناقلت السلطات السيطرة على الأحياء، بينما لم تتمكن من السيطرة على المحافظات؛ وانتهى العام في حالة من الجمود. فبدون مساعدات خارجية لا يمكن للثوار (المتمردين) مواجهة الحكومة المدعومة من إيران وروسيا بالقوى العسكرية. تمكنت الحكومة من طرد المتمردين خارج مناطق من الجانب الغربي وتوسعت في فرض سيطرتها على المناطق المجاورة، ولكن لا يمكن أن نأمل بشكل واقعي أن تتمكن من هزيمة المتمردين، لا سيما الجماعات الجهادية التي تسيطر على معظم أنحاء البلاد، لا سيما الريف في شرق سوريا ووسطها.

نمط القتال في عام 2015

استمر القتال في عام 2015 على نفس المنوال، إلا مع بعض الاستثناءات البارزة. فقد عانت القوات الحكومية السورية، التي أظهرت مرونة في عام 2014، من خسائر فادحة تكبدتها في النصف الأول من عام 2015. وفي القطاع الشمالي الغربي من سوريا، وقعت هجمات عسكرية شنتها جبهة النصرة وتشكيلات متمردة أخرى أقل قدرة حيث استولت على مدينتي حلب وإدلب، فضلاً عن قاعدة المسطومة العسكرية المهمة، وأغلب البلدات المحيطة بها. وقد منح ذلك المتمردين السيطرة على أجزاء كبيرة من محافظة إدلب، ووضعتهم في مرمى المدفعية في أريحا. وفي الوقت نفسه، استولت جبهة التمرد الجنوبية التي يسيطر عليها السلفيون على عدد من المدن في جنوب غرب سوريا، ونشبت معركة كبيرة بينهم وبين المتمردين ووحدات حزب الله الذين يخوضون المعركة نيابة عن النظام.

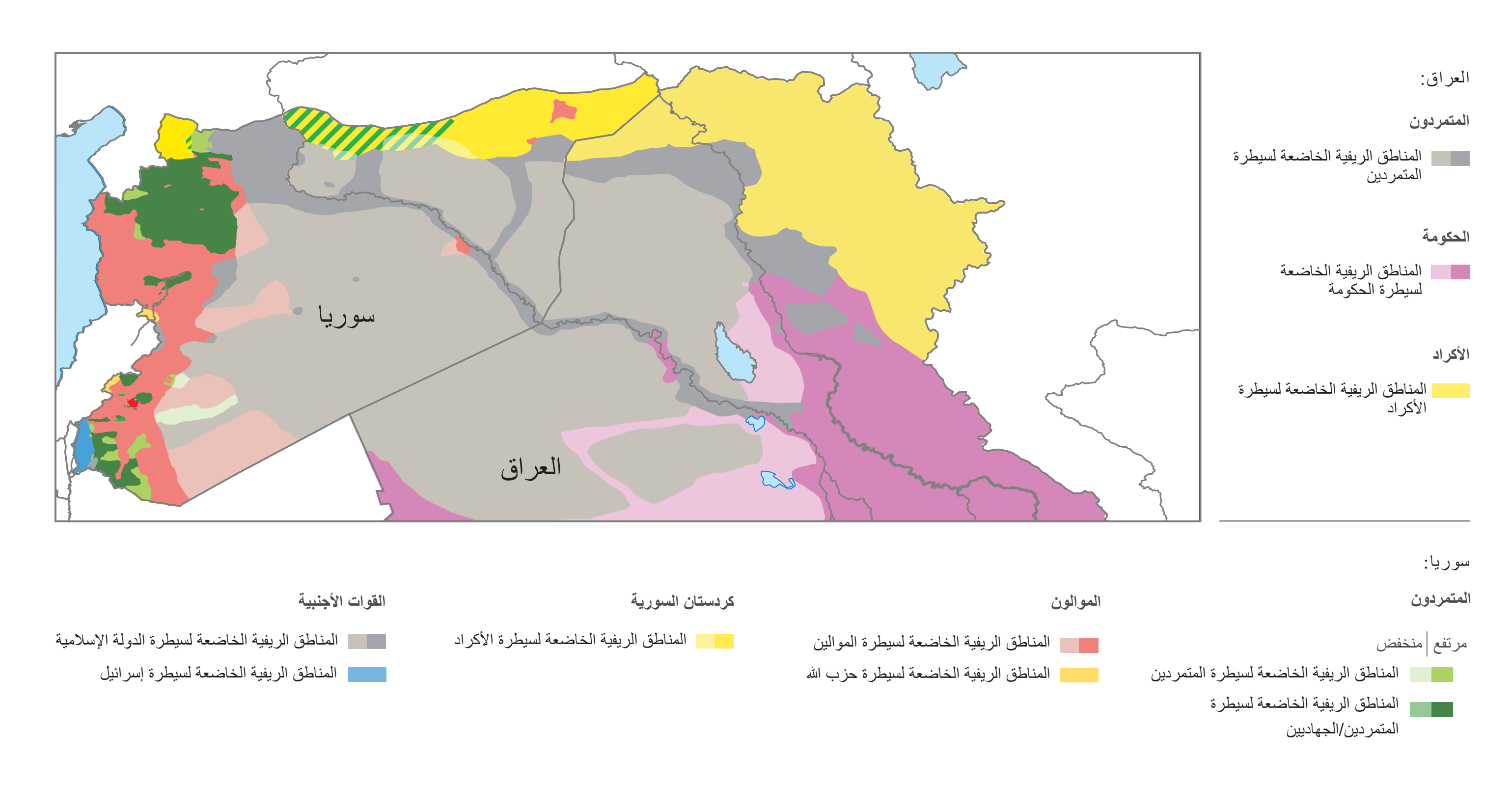
أثناء ذلك، تعرضت محاولات الدولة الإسلامية في العراق والشام للسيطرة على كوباني للفشل بفضل المقاومة العنيفة التي لاقتها إلى جانب القصف الأمريكي، وتمكن المقاتلون الأكراد الباسلون من طرد الدولة الإسلامية في العراق والشام خارج العديد من البلدات في المنطقة المحيطة. كما تمكن المقاتلون الأكراد من طرد الدولة الإسلامية في العراق والشام خارج بلدات في شمال العراق. إضافة إلى ذلك، تمكنت القوات الحكومية العراقية والميليشيات الشيعية، بفضل الدعم الذي تلقته في اللحظات الأخيرة من القوات الجوية الأمريكية التي تدخلت بعد أن أثبتت المساعدات الإيرانية عدم قدرتها على طرد قوات الدولة الإسلامية في العراق والشام، من إعادة فرض السيطرة على مدينة تكريت، وهو الإنجاز الكبير الذي خيَّمت أجواؤه على فقدان مدينة الرمادي.

وبالرغم من تلك الانتكاسات التي تعرضت لها الدولة الإسلامية، إلا أنها كانت قادرة على تعزيز سيطرتها على محافظة الرقة في شرق سوريا وتهديد مدينة تدمر الأثرية وقاعدة تدمر السورية الجوية. تذكر

بعض المصادر أن الدولة الإسلامية في العراق والشام تملك السيطرة على نسبة 50 بالمئة من الأراضي السورية.[13] قد تكون لفظة "السيطرة" مبالغاً فيها. وسيطرت الدولة الإسلامية على بعض المدن، وفرضت نفوذها على السكان المجاورين، وأصبح بإمكانها التحرك بحرية (باستثناء المناطق التي تتعرض لقصف جوي) في تلك المناطق. وكانت الخرائط التي تظهر المساحات الكبيرة التي سيطرت عليها الدولة الإسلامية مضللة. فالكثير من مساحات الأراضي التي تسيطر عليها الدولة الإسلامية صحراء خاوية، فهي جزء من الصحراء الكبرى التي تمتد عبر شمال المملكة العربية السعودية، وغرب العراق، وجنوب سوريا، وهي غير مأهولة بالسكان باستثناء بعض البدو من رعاة الأغنام. بينما لا تفرض الدولة الإسلامية في العراق والشام سيطرتها حقيقة سوى على وادي نهر الفرات الذي يعبر سوريا والعراق، وتضم مدن الرقة، والرمادي، والفلوجة.

نهر الفرات هو ميزة جغرافية رئيسية في المنطقة وله أهمية كبيرة اقتصادية وإستراتيجية. وقد حدت السدود من تدفق المياه في العقود الأخيرة، بينما أدى الإفراط في الزراعة إلى مزيد من ندرة إمدادات المياه. لقد نزح الكثير من سكان وادي الفرات نتيجة لمشروعات السدود، وعانى هؤلاء الباقون من صعوبات شديدة في المعيشة، وساهم ذلك بلا شك في قدرة الدولة الإسلامية على استغلال هذا الأمر. تفاقم الوضع في عام 2014 بعد أن اتخذت

الشكل 2. سوريا والعراق، 25 حزيران، 2015.



تركيا قراراً بوقف تدفق المياه إلى سوريا. وتمثل السدود على نهري دجلة والفرات أيضاً أهدافاً عسكرية مهمة، تمكن المسيطرون عليها من وقف تدفق المياه أو زيادتها إلى مناطق المصب.

وفي أيار من عام 2015، وبعد معركة استمرت عاماً كاملاً مع القوات العراقية، تمكنت قوات الدولة الإسلامية في العراق والشام من فرض سيطرتها على مدينة الرمادي بالكامل. وأثبت سقوط مدينة الرمادي قدرة الجماعة على التكيف مع الحملة الجوية ضدها وعلى حشد وتعبئة قواتها لتشكيل ساحة قتال يمكنهم خلالها تحقيق الانتصار. كما أظهرت قدرة الدولة الإسلامية على نقل القوات للأمام والخلف والقيام بهجمات متزامنة على كلتا الجبهتين الغربية والشرقية. فضلاً عن استرداد مدينة الرمادي الذي أدى إلى إضعاف الجيش العراقي.

كان لسقوط مدينة الرمادي في أيدي الدولة الإسلامية، وما تبعه من سقوط سريع لمدينة تدمر في سوريا أثر نفسي كبير، حيث جاء بعد حالة التفاؤل التي مرت بها واشنطن والتي دفعتها إلى إعلان أن القدرات العملية للدولة الإسلامية تناقصت بقدر كبير بفضل استمرار الحملة الجوية. وقد يكون هذا الأمر صحيحاً: فانتصار الدولة الإسلامية في مدينة الرمادي كان مكلفاً للغاية. ومع ذلك، فإن الدولة الإسلامية قد بدا لها عدد كبير من المتطوعين - الذين يسعون نحو دخول الجنة المتعصبين للدولة الإسلامية.

إن الحرب المعاصرة لا تقتصر على المعارك فحسب؛ بل إنها ترتبط أيضاً بالتلاعب بالمفاهيم. وتضطر الدولة الإسلامية إلى الظهور بمظهر الفائز من أجل جذب المجندين وتثبيط همم أعدائها، بينما يجب أن يظهر أعداؤها خاسرين. وفي الرمادي، فشل الجيش العراقي إلى جانب فشل حملة القصف التي قادتها أمريكا بغض النظر عن ماهية التقدم الفعلي المحرز من أجل إضعاف المؤسسة.

النظر للمستقبل

بالرغم من أن جميع التوقعات كانت محفوفة بالمخاطر، فأنا أؤمن بأن سمات الصراعات الحالية ستشكل مستقبل المنطقة من جوانب متعددة، عسكرياً وسياسياً. وفيما يلي نستعرض الاستنتاجات الأساسية التسعة.

الصراعات في حالة من الجمود

بالرغم من استمرار القتال في سوريا والعراق على جبهات متعددة، إلا أن الصراعات في حالة من الجمود. ومع بعض الاستثناءات، فإن خريطة الصراعات في البلدين لا تبدو مختلفة إلى حد كبير عما كانت عليه قبل عام تقريباً، عندما أدت الانتصارات التكتيكية التي حققتها الميليشيات الكردية والشيعية إلى طرد الدولة الإسلامية من شمال العراق وشرقه. وفي الوقت الذي واصلت فيه القوات العراقية تحرير مدينة تكريت، فإنها فقدت مدينة الرمادي.

كان نظام الأسد على وشك السقوط في عام 2013، ولكنه استعاد بعض المدن في عام 2014، ولكنه الآن يبدو مرة أخرى في وضعية ضعيفة. حيث لا يمكن للقوات الحكومية هزيمة المتمردين واستعادة الأراضي السورية التي تسيطر عليها جبهات المتمردين في الغرب والدولة الإسلامية في الشرق. وفي الوقت نفسه، لا يكون باستطاعة تشكيلات المتمردين هزيمة القوات الحكومية وإخضاع معاقلها الموالية لها في غرب سوريا.

إن إعادة بناء قوات الأمن العراقية سوف يستغرق سنوات؛ فحتى مع الدعم الإيراني الذي يتلقاه الجيش العراقي، ففي المستقبل المنظور لن يكون بمقدوره إزاحة مقاتلي الدولة الإسلامية من المناطق الحضرية التي يسيطرون عليها حالياً.[14] وعلاوة على ذلك، فإن الحكومة العراقية إذا تحولت تجاه الحشد الشعبي الشيعي الذين تولت إيران تدريبهم، وتنظيمهم، وتجهيزهم من أجل إعادة السيطرة على المدن والقرى السُّنية، فمن المحتمل أن يؤدي ذلك إلى تصعيد الصراع الطائفي ومزيد من عدم الاستقرار طويل الأجل في العراق.

وستستمر الدولة الإسلامية في السيطرة على محافظة الأنبار بالعراق والجزء المجاور لشرق سوريا، ولكنها قد بلغت حد الطائفية. لقد أصابت قدراً

من الدعم في المناطق السُّنية، التي كانت معقلاً للمقاومة خلال "الحرب على العراق"، ولكنها ستجد الأمر أكثر صعوبة فيما يتعلق بالاستيلاء على المناطق ذات الأغلبية الشيعية في العراق. قد تسقط بعض البلدات في يد الدولة الإسلامية، ولكن لن يكون بمقدورها تكرار ما فعلته في عام 2014 والزحف تجاه شمال العراق. ومع ذلك، فإنها قادرة على تحدي الجماعات الجهادية الأخرى بالنسبة للأراضي في سوريا. والسؤال المطروح منذ زمن بعيد هو هل بمقدور الدولة الإسلامية فرض سيطرتها بإحكام على المناطق المستولية عليها حالياً بعيداً عن اتباع طرق التخويف وتوفير خدمات محدودة لها أم لا. ويُطرح السؤال نفسه على المناطق الواقعة تحت سيطرة جبهة النصرة.

يمكن للدولة الإسلامية في العراق والشام أن تتسلل إلى دمشق وبغداد وتنفذ هجمات إرهابية على نطاق واسع وعلى غرار هجمات مومباي أو هجمات أكثر عدائية. تلك الهجمات الأخيرة كانت نسخة مصغرة من هجوم تيت في عام 1968 الذي شنه الفيتكونغ في فيتنام. ولم يكن الغرض من أعمال العنف تلك الاستيلاء على سايجون أو هو، بل كانت تهدف إلى الاستيلاء على النقاط الرئيسية في المدن واحتجازها لأسابيع، مما يشير إلى أن الجيش الأمريكي قد أخفق في هزيمة الفيتكونغ. تكبد المهاجمون ثمناً غالياً نتيجة هجوم الفيتكونغ ـــ حيث دُمِّرت جماعة الفيتكونغ القتالية تماماً ـــ إلا أنها كسرت الإرادة السياسية لأمريكا. ويمكن لشن هجوم كهذا في بغداد أو دمشق أن يطيح بالزعماء السياسيين الحاليين، ولكن سيحل محلهم آخرون وسيظل القتال مستمراً.

ويحتمل أن تعمل الدولة الإسلامية في العراق والشام نفسها هي ومؤيدوها على تصعيد حملتهم الإرهابية ضد الشيعة ورموزهم عبر المنطقة بالتأكيد في المناطق الشيعية من العراق، والمملكة العربية السعودية، والكويت، وأماكن أخرى من الخليج.

ويكون المقاتلون الأكراد، بفضل تعزيزهم بقوات التحالف الجوية، قادرين على الدفاع عن أراضيهم ذات الحكم الذاتي في شمال العراق وسوريا، لكن من غير المحتمل أن يكون بمقدورهم تحقيق نجاحات مثيرة وكبيرة في الأراضي التابعة للدولة الإسلامية. فأي تقدم تجاه الجنوب يمكنه أن يضع المقاتلين الأكراد داخل الأراضي السُّنية، حيث يمكنهم أيضاً مواجهة مقاومة من القبائل السُّنية. فالأكراد لا يرغبون في تحمل مسؤولية مساحات أكبر من الأراضي لا سيما مع وجود معارضة تركية. فهم لهم ما يريدون ـــ من سيطرة على الأراضي من كركوك في الشمال وحتى الحدود التركية. ولكن إذا كانت العملية ستحقق نجاحاً، فإن تعاونهم مع بغداد للحصول على الموصل سيكون أساسياً.

أصبحت جبهة النصرة وتشكيلات المتمردين مستولية في سوريا على الأراضي لفترة طويلة. وكما هو الحال في العراق، تناقلت السلطات السيطرة على المدن بين الحكومة وقوات المتمردين، وبين المتمردين والدولة الإسلامية. فالصراعات أصبحت "حرب حدود" بشكل متزايد. وسيحدث الدمج مع التوسع، ولكن ستكون المكاسب والخسائر تدريجية.

الاختلافات الطائفية والعرقية تحث على القتال

أصبح الصراع الذي تشهده سوريا طائفياً نظراً لأن المعارضة العلمانية للحكومة أصبحت متضائلة، بالرغم من أن بعض السُّنة لا يزالون يقاتلون إلى جانب القوات الحكومية، وهو ما يخلق صراعات ضارية فيما بينهم. الصراع الشديد الآخر واقع بين جبهة النصرة والدولة الإسلامية في العراق والشام، وكلاهما يسيطر عليه أهل السُّنة. في العراق، الخطوط بين السُّنة، والشيعة، والأكراد مرسومة بوضوح.

وتحد خطوط الصدع الطائفي من التقدم العسكري، كما أنها تؤثر على تكوين الجيوش الوطنية. ولا تكون الحكومات التي تقع مناطق كثيرة من أراضيها تحت سلطة المتمردين قادرة على حشد الجنود على أساس وطني. فالمناطق السُّنية بعيدة عن متناولهم، والحكومة السورية العلوية وحكومة بغداد الشيعية ينظرون إلى الجنود السُّنة على أنهم لا يمكن الوثوق بهم بأي حال من الأحوال. وستتابع سوريا الاعتماد على العلويين وبعض السُّنيين المحليين. يجعل هذا الوضع من الجيوش الوطنية أقل تمثيلاً بكثير للسكان الوطنيين وتكوين المزيد من التشكيلات الطائفية. ويتسارع هذا التوجه من خلال اعتماد كل من دمشق وبغداد على حد سواء على وحدات الميليشيات، التي يكون

تنظيمها قائماً على أساس طائفي أو عرقي. (المزيد بشأن ذلك لاحقاً.) وسيكون من الصعب عكس هذا الاتجاه دون إعادة السيطرة على الكثير من المناطق الوطنية وبذل الجهود الكبيرة في التوعية السياسية. ويبدو أنه من غير المحتمل تنفيذ تلك الإجراءات.

على الجانب الآخر، بدأ يبزغ نجم التشكيلات المتمردة العلمانية. وكان أهل السُّنة هم أساس حركات التمرد في كلا البلدين. فالجنود السابقون لدى الجيش السوري الحر انضموا إلى الجماعات ذات الواعز الديني في سوريا، وهو أمر راديكالي بشكل متزايد (أو يجب أن يتم التظاهر بذلك للبقاء على قيد الحياة).

وستستمر الاختلافات الطائفية في عرقلة الحكومة العراقية الشيعية ورغبتها في بذل جهود مثمرة للتوفيق بينها وبين أهل السُّنة، أو اتخاذ إجراءات للوفاء بالوعود التي قطعتها الحكومة بالتنازل للأكراد ــــ وهي الجهود التي ستكون ضرورية لخلق جهد وطني حقيقي ضد الدولة الإسلامية. وليس ثمة دليل على بذل الحكومة السورية أي جهود لكسب عقول أهل السُّنة وأفئدتهم. ويتعارض ذلك مع الإستراتيجية السورية لمكافحة التمرد، التي تهدف إلى جعل الحياة غير ممكنة في المناطق الواقعة خارج سيطرة الحكومة، مما يؤدي إلى تحول نسبة كبيرة من السكان إلى لاجئين.

إن السلوك الوحشي الواضح للمحتلين من الدولة الإسلامية تجاه الأقليات الدينية والعرقية يجعل الدفاع عن الشيعة، والعلوية، والمسيحيين، والدروز مسألة حياة أو موت. وفي الوقت نفسه، يساهم سلوك العلويين الموالين لنظام الأسد والميليشيات الشيعية في بغداد في المدن التي يستولون عليها في خلق دائرة من الثأر، والانتقام، والترحيل القسري ــــ فالكفاح أصبح مسألة وجودية لجميع الأطراف المعنية.

إن طبيعة الصراعات الطائفية لها عاقبتان اثنتان. الأولى، أنها تعرقل المساعدة من الولايات المتحدة وشركائها في التحالف. ففي الوقت الذي يهدفون فيه إلى تدمير الدولة الإسلامية في العراق والشام، وإسقاط نظام الأسد، بدرجة أقل، إلا أنه لا يمكنهم دعم القمع الوحشي الذي يقوم به السُّنيون. الثانية، أن الاختلافات الطائفية ستعيق التسوية الشاملة للصراعات. فعندما كانت حركة التمرد في سوريا تهدف في المقام الأول إلى إسقاط نظام الأسد، كان التوصل إلى التسوية السياسية ممكناً. ولكن لم يعد الحال كذلك. وعندما تسعى الولايات المتحدة إلى إقناع الحكومة العراقية باتخاذ إجراءات ضرورية للصلح بين الأكراد والأقليات السُّنية، فإن السلام له ثمن، ولا يبدو أن الشيعة، ولا السُّنة، ولا الأكراد يريدون دفع الثمن. فلا يمكن تصور أن تعيش أي جماعة طائفية في ظل هيمنة أخرى.

فشل الجيوش الوطنية ــــ تحول السلطة إلى الميليشيات

فشلت الجيوش الوطنية ذات المكانة الكبيرة في كل من سوريا والعراق في قمع حالات التمرد الداخلي. وتصاعدت الاحتجاجات في سوريا لتصل إلى حد المقاومة المسلحة، وأدت حالات الفرار واسعة النطاق للمجندين السُّنيين من القوات السورية إلى عدم إمكانية الاعتماد على القوات البرية السورية، وهو ما اضطر الحكومة إلى التخلي عن أجزاء من الريف للمتمردين والاعتماد على القوات الجوية، ووحدات المدفعية، وقوات العمليات الخاصة ذات الموثوقية والتي يسيطر عليها الموالون للنظام. وانضم عدد كبير من الميليشيات الشيعية غير النظامية من العراق وحزب الله اللبناني، التي أشرف على تسليحها، وتدريبها، وتجهيزها فيلق القدس الإيراني حيث تقاتل الميليشيات بجوارهم، وذلك من أجل المحاربة إلى جانب الجيش السوري. ونظراً للأسباب التي جرت مناقشتها بالفعل، فإن فقدان الأرض وعدم الوصول إلى جزء كبير من السكان ممن تحولوا إلى لاجئين قد قلَّل من قاعدة تجنيد الجيش الوطني، وهو ما أجبر الحكومة على الاعتماد بشكل أكبر بكثير على الجنود العلويين ليصبحوا ضمن الجيش النظام وعجَّل بتنظيم الميليشيات المحلية. وثمة تقارير تشير إلى أن القاعدة العلوية الموالية للحكومة أصبحت تتضجر من الوضع الحالي والأعباء الواقعة عليها.

في العراق، أثبت الجيش الذي أشرفت الولايات المتحدة على تنظيمه، وتجهيزه، وتدريبه شكلياً ويبلغ قوامه 350,000 مقاتل، عدم القدرة على وقف تقدم أي قوة غير نظامية مسلحة بأسلحة خفيفة ويقل قوامها بنحو واحد على عشرين من قوام هذا الجيش.

وفي الوقت الذي أضعفت فيه قوات الدعم الجوي الأمريكية الهجمات المتتالية للدولة الإسلامية، فإن الحكومة العراقية اضطرت إلى الاعتماد على الميليشيات التي يحشدها رجال الدين من الشيعة، والسياسيون، والقادة العسكريون الذين لهم علاقات وثيقة بإيران، وقد قاتل العديد منهم إلى جانب إيران خلال الحرب الإيرانية-العراقية في الثمانينيات، من أجل الاستفادة من دفاعاتهم. وفي عام 2015، تمكنت قوة مشتركة من الميليشيات الشيعية، وبعض رجال القبائل السُّنية، ووحدة صغيرة من القوات النظامية للجيش من إعادة السيطرة على بعض المدن، والمدينة المهمة تكريت، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستمرار حتى مدينة الرمادي. ومن دون الدعم السُّني الكبير، لن يكون بمقدور القوات العراقية استعادة السيطرة على محافظة الأنبار.

إن الجيش العراقي لا يزال تحت الإنشاء بمساعدة أمريكية، ولكنه لن يكون جاهزاً لعدة أشهر لمحاولة تنفيذ المهمة الصعبة المتمثلة في استعادة الموصل وغيرها من المراكز الحضرية المهمة التي تسيطر عليها الدولة الإسلامية حالياً. ويتمثل أحد أكبر التحديات لتدريب هذه القوة في الحصول على المتطوعين الراغبين في الخضوع للتدريب. هذا الأمر حقيقي لا سيما بالنسبة للمتطوعين من أهل السُّنة، فالعديد منهم ظل غير مستعد لدعم الحكومة ويرون أنهم دمية في يد إيران. وحتى ذلك الوقت، سيبقى العراق معتمداً على

كان لتحول القوة العسكرية من قوات نظامية تحت سيطرة مركزية إلى ميليشيات ذاتية الحكم آثاره العسكرية والسياسية على حد سواء.

الميليشيات لحماية بغداد. فقوات الشرطة في البلاد مخصصة جهودها للوقوف عند حواجز الطرق ونقاط التفتيش لمنع تسلل الإرهابيين إلى بغداد والمناطق الأخرى الواقعة تحت سيطرة الحكومة.

كان لتحول القوة العسكرية من قوات نظامية تحت سيطرة مركزية إلى ميليشيات ذاتية الحكم آثاره العسكرية والسياسية على حد سواء. فالميليشيات قادرة على الدفاع عن المناطق المحلية، ولكنها غير قادرة على العمل بطريقة إستراتيجية. وتشيع فيما بينها الخلافات الداخلية، ويصعب الحفاظ على وحدة القيادة. وتفتقد الميليشيات للتدريب، والأسلحة الثقيلة، والتعبئة؛ بالرغم من أن الدولة الإسلامية في العراق والشام، وهي قوة غير نظامية، أظهرت قدرة على التغلب على تلك التحديات وظهرت بشكل متزايد أنها قادرة على تنسيق الهجمات على نطاق واسع، وتنفيذ عمليات التشكيل، وتعبئة القوات للمعارك الحاسمة. وقد تغلبت الدولة الإسلامية على افتقادها للأسلحة الثقيلة من خلال الابتكارات، مثل استخدام المدرعات المجنزرة (ومركبات هامفي من الولايات المتحدة) لتنفيذ الهجمات الانتحارية بالسيارات المفخخة، كما هو الحال المتبع في مدينة الرمادي. ويوحي هذا ببعض المهارات والخبرات المستمدة من حرب واسعة النطاق، يتمتع بها الضباط العراقيون السابقون. وقد أعطى سقوط مدينة الرمادي الدولة الإسلامية كمية كبيرة من المعدات الثقيلة. يصعب أيضاً السيطرة على الميليشيات، لا سيما في المعارك الطائفية، وهم عرضة لتنفيذ أعمال انتقامية، وسلب ونهب، وتطهير عرقي. ولا تقلق الدولة الإسلامية من مثل تلك السلوكيات — بل إنها تعتمد عليها في ترهيب خصومها وجذب المجندين الأجانب.

يشكل أيضاً اعتماد الحكومة المتزايد على الميليشيات الشيعية تهديداً طويل الأمد فيما يتعلق بالحفاظ على استقلال العراق مع وجود حكومة قادرة على السيطرة على البلاد بأكملها. فإحدى الخصائص الرئيسية للدولة هي قدرتها على احتكار استخدام القوة. وفي حالة العراق، فإن الميليشيات الشيعية ومنذ عام 2004 وهي ذات وجود على أرض الواقع وتؤدي عمل حكومة الظل، حيث يفرض المسؤولون الحكوميون سيطرتهم على الميليشيات

من خلال العلاقات الأسرية التي تدعمها إيران. وقد نتج عن ذلك ضعف الحكومة المركزية التي أصبحت وبقدر كبير عرضة للنفوذ الإيراني وتدخلها في الشؤون الداخلية للبلد. ويشبه هذا الوضع الحالي في لبنان، وهو الأمر الذي دعا العديد من الخبراء العراقيين إلى أن يطلقوا عليه اسم "لبننة العراق".

تواجه الحكومة السورية مشكلات مشابهة لما يواجهه العراق، بالرغم من أن الوضع في سوريا أكثر تعقيداً، وأنها قطعت شوطاً طويلاً نحو الدمار والخراب. ويمكن للجيش السوري والقوات الجوية استخدام القوة استخداماً إستراتيجياً لتدمير التجارة، والإنتاج الغذائي، والرعاية الصحية في مناطق المتمردين، ولكنه يعتمد على الميليشيات للدفاع عن المناطق الموالية له. فالميليشيات لها فعالية إستراتيجية محدودة وقدرة على التخطيط للسلطة. ولن يكون بمقدور الحكومة طرد الجهاديين خارج الأراضي التي يسيطرون عليها حالياً، ولعدة سنوات قادمة في بعض الحالات.

إن انتقال السلطة من الجيوش المركزية إلى الميليشيات يعني أيضاً سلطة مركزية أضعف. فلم تعد الحكومة تمارس احتكار العنف على نطاق واسع. ويمكن للقوات الحكومية تنفيذ هجمات مدمرة عند الحدود الوطنية، ولكن لا يمكنهم مهاجمة الأراضي الوطنية ولا السيطرة عليها. وتؤول السلطة السياسية للقوات المحلية التي تسعى إلى تحقيق أهدافها السياسية والطائفية — وهي تشكيلات المتمردين وقادة الميليشيات المحلية الذين يدين بعضهم بالولاء للقوى الأجنبية، والقادة العسكريين، وقيادات المافيا. ويمكن أن تؤدي عملية إعادة التوحيد وفرض السلطة الوطنية إلى تهديد وضع الشيوخ المحليين، والأجندات الطائفية، وفي بعض الحالات، المشاريع المربحة التي تظهر في غياب السلطة المركزية.

وحتى وقت قريب، كانت سوريا والعراق خاضعتين لحكم رجلين شقَّا طريقهما نحو المجد وحافظا على الوحدة الوطنية وسلطتهما الذاتية حيث أنشآ جيوشاً كبيرة وأجهزة أمن داخلي منتشرة وقمعا جميع فئات المعارضة دون رحمة. وقد يعني تقليل السلطة المركزية — كل من القوة المسلحة والقدرة على توزيع الغنائم — العودة إلى حالة عدم الاستقرار التي كانت حاضرة في كلا البلدين خلال الخمسينيات والستينيات. وكانت سوريا قد شهدت في الفترة من عام 1949 وحتى عام 1970 العديد من المؤامرات إلى جانب سبعة انقلابات، انتهت بتنصيب حافظ الأسد في السلطة. كما شهد العراق ثلاثة انقلابات بين عام 1958 و1968، بلغت ذروتها حين بزغ نجم صدام حسين.

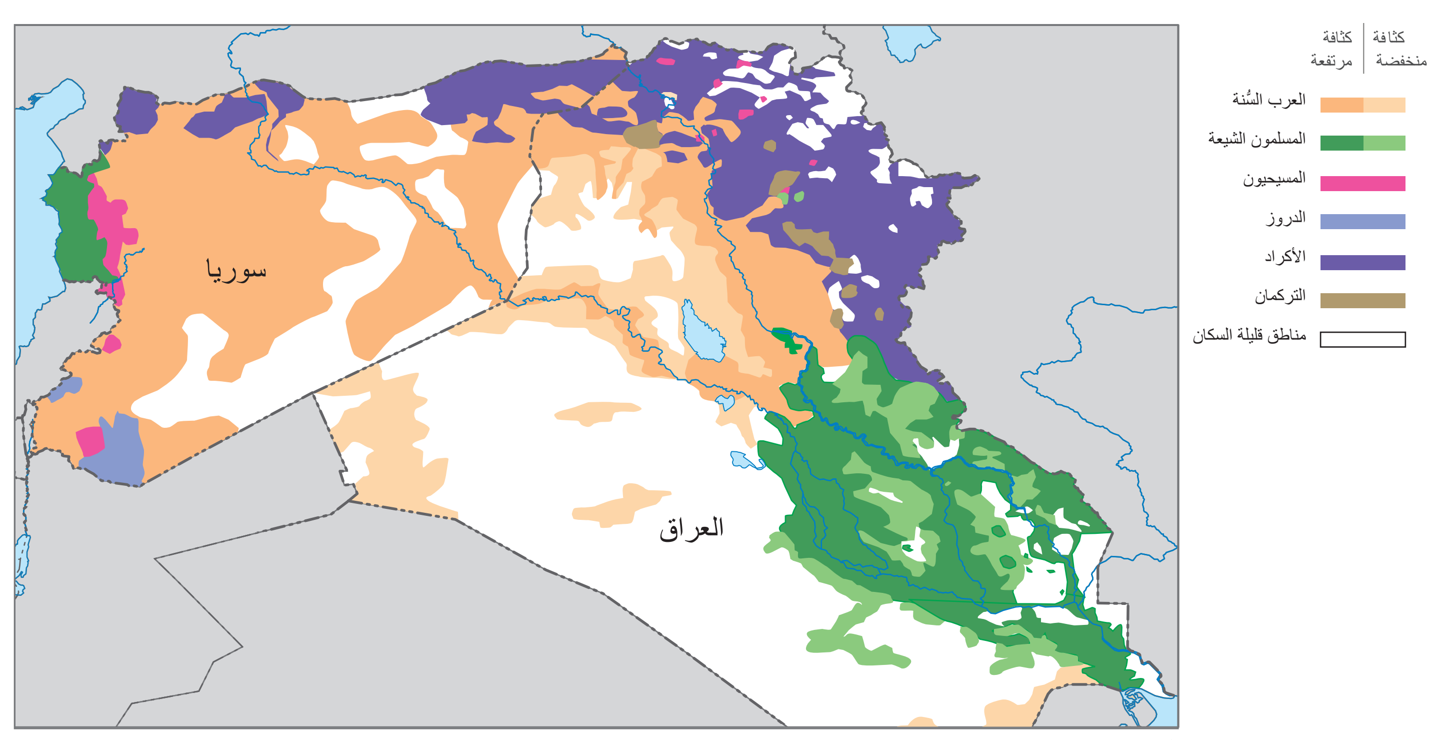
اختفاء أمَّتَي سوريا والعراق — استمرار التقسيم

إن سوريا والعراق تقسيمات مصطنعة، فترسيم حدودهما قام به المستعمرون ذوو الخبرة الضئيلة وعدم المعرفة والانتباه إلى الحقائق العرقية والطائفية على أرض الواقع. وحافظ الحكم الاستعماري على تلك الحدود سليمة دون مساس بها في حين تفاقمت التوترات بين الجماعات الطائفية والعرقية. كما تخلصت الديكتاتوريات العسكرية التي أعقبت الاستقلال من أي حركات تمرد عرقية أو طائفية. وأدى الغزو الأمريكي للعراق والتمرد في سوريا إلى تقطيع الروابط التي تربط بين البلدين. واعتمدت الصراعات المستمرة على تلك التقسيمات.

وكانت الطبيعة الطائفية المتزايدة للصراعات وانحسار دور السلطة المركزية يشيران إلى استمرار التقسيم بحكم *الواقع* في كلا البلدين. فقد توقفت سوريا والعراق عن إدارة أراضيهما الوطنية وقد لا يتمكنان من ذلك مطلقاً. وبالنسبة للمستقبل المنظور، فإنه لن يمكن لأي بلد بسهولة العودة للوضع السابق مرة أخرى.

تعكس خريطة الأراضي التي تسيطر عليها الأطراف المتحاربة المختلفة خريطة توزيع مجتمعات طائفية وعرقية. فقوات الحكومة السورية، مشتركة مع الميليشيات المحلية ومقاتلي حزب الله الحلفاء يسيطرون على معاقل العلويين والمسيحيين في جبال يُطلق عليها اسم جبال الأنصارية (أو النصيرية) وساحل البحر الأبيض المتوسط، إلى جانب بعض المواقع الخارجية في مناطق بعيدة من البلاد. ويمكن للقوات الموالية للحكومة تعزيز

الشكل 3. الكثافة العرقية في سوريا والعراق، 2015.



المصدر: بحث غير منشور قدمه Amichai Ayalon، وRobert C. Castel، وElad Popovich.

دفاعاتها في هذا المعقل بعد أن أنهكها القتال واستنفد من طاقتها وطاقة رجالها. ونجح الأكراد في توحيد وتعزيز قبضتهم في المناطق الكردية في سوريا والعراق. ولا يزال الشيعة مسيطرين في المناطق الشرقية والجنوبية من العراق، حيث الأراضي التي سكنوها منذ قديم الأزل. وتنتشر الدولة الإسلامية في غرب العراق وشرق سوريا، بينما تتواجد قوات المتمردين الأخرى في الجزء الغربي من البلد حيث يسيطرون على المناطق التابعة لأهل السُّنة. وبعد أن توسعت الدولة الإسلامية بقدر كبير في عام 2014، تقهقرت وتنازلت عن بعض ما استولت عليه. وفي الوقت نفسه، خطت الدولة الإسلامية والقوات المتمردة الأخرى في سوريا خطوات نحو دمشق وإدلب، ولكنها بدت غير قادرة على اختراق عمق معاقل العلويين والمسيحيين في سوريا.

وسيظل العراق خاضعاً للتقسيم إلى مناطق سُنية، وشيعية، وكردية، بالرغم من أن القوات الموجودة داخل تلك المناطق غير موحدة وأن البعض يشارك في قتال طائفي متداخل. وبالمثل ستبقى سوريا مقسمة إلى مناطق

صغيرة ومعقدة طائفية وعرقية تُدافع عنها في الغالب القوات المحلية. وبالرغم من أنها لا تزال تشهد تنافسات داخلية، إلا أن الأكراد، لا سيما داخل العراق، سيظلون مستقلين كما هو حالهم منذ حرب الخليج.

السؤال الآخر يرتبط بشأن ما إذا كانت تلك التقسيمات العرقية والطائفية قابلة للمعيشة من الناحية الاقتصادية. ويمكن للمرء أن يلاحظ الخطوط العريضة للدولة السورية وهي تتألف من مناطق العلويين، والمسيحيين، والدروز في الغرب. فهي ستشبه كثيراً ولاية عثمانية قديمة في سوريا. وستدعم عوائد النفط ظهور مناطق كردية في سوريا والعراق. وبالمثل، فإن مناطق الشيعة في العراق ذات موارد وافرة من النفط. وسيظهر كيان أهل السُّنة في وادي الفرات مع بعض مناطق متناثرة في الصحراء العربية السورية ليكون مجتمعاً زراعياً في الأساس، ويحتمل أن يكون الأكثر فقراً.

يشكل هذا الوضع معضلة بالنسبة للولايات المتحدة والآخرين الذين كرسوا جهودهم للحفاظ على سوريا والعراق كما هو حالهم الحالي على الخرائط. فالحدود الحالية، التي رسمها المستعمرون في عام 1915، لا تعني الكثير على الأرض اليوم، ولكن اقتراح أن الصراعات الحالية يمكن حلها بتقسيم سوريا والعراق إلى دويلات ينظر إليه البعض في الشرق الأوسط باعتباره مؤامرة إمبريالية غربية أخرى. ويؤمن مَن طرح تلك النظرية بأن القوى الغربية، لا سيما الولايات المتحدة، تنشر الجانب الطائفي للصراعات عمداً لخدمة مصالحها الخاصة.[15]

إن الشعبين السوري والعراقي اللذين أنهكتهما الحروب، يمكنهما في يوم ما، وبمساعدة دولة، تنحية الخلافات الطائفية، ومحاربة التعصب الديني، ووضع حد لدائرة العنف والانتقام، والسعي وراء بناء هيكل سياسي يحفظ الوحدة الاسمية مع السماح بقدر كافٍ من السلطة المحلية ومشاركة السلطة للحفاظ على السلام. وقد حققت لبنان بعد 15 عاماً من الحرب الأهلية طريقة *للعيش* ضعيفة ولكنها مقبولة. وكان الجدول الزمني اللبناني يشير إلى استمرار الأعمال العدائية لمدة عشر سنوات على الأقل، ولكن لم تصل الحرب الأهلية في لبنان إلى حدة الصراعات في سوريا والعراق.

وربما تشهد سوريا أو العراق في المستقبل شخصًا مثل ابن سعود أو كمال أتاتورك، يدفعه طموح الأسر الحاكمة أو الحماسة القومية، والجاذبية، والمهارة السياسية والعسكرية ليكون قادراً على استعادة الحكم الوطني في هذين البلدين. ولكن لم يبرز على الساحة حتى الآن قائد بتلك المواصفات.

الدولة الإسلامية أم أراضي أهل السُّنة غير القابلة للزراعة؟

يواجه أهل السُّنة في سوريا والعراق مستقبلاً قاتماً مهما كان السيناريو الذي سيخضعون له. فاستياؤهم قد ساهم في النجاح العسكري للمتمردين، ولكن ماذا سيجلب لهم ذلك على الأمد الطويل؟ لقد انحدرت المعارضة المعتدلة والعلمانية لأهل السُّنة في سوريا ولم تعد تمثل قوة رئيسية. وهذا جعلها دون أي قوة مسلحة بخلاف الإسلاميين المتحالفين مع الجهاديين الأكثر تطرفاً، وفي الوقت الذي تتواجد فيه بعض حركات التمرد السُّنية في العراق، فإن الدولة الإسلامية تسيطر على المقاومة السُّنية. فليس بإمكان الجماعات المتمردة في سوريا ولا الدولة الإسلامية غزو سوريا والعراق لتنصيب حكومات ذات قيادة سُنية في دمشق وبغداد. إذاً، كيف يكون المستقبل السياسي للأغلبية السُّنية في سوريا أو الأقلية السُّنية في العراق؟ هل يتحد أهل السُّنة في كلا البلدين لإنشاء دولة مستقلة تضم غرب العراق وشرق سوريا؟

الحدود اليوم، التي رسمها المستعمرون في عام 1915، لا تعني الكثير على الأرض اليوم

السؤال الأساسي هو ما إذا كانت الدولة الإسلامية بمقدورها الاستمرار في البقاء في ظل الحدود الطائفية ووجود القوات الفعالة على الأرض كونها مدعومة بغطاء جوي من التحالف. وتعتمد الدولة الإسلامية على استمرار الانتصارات العسكرية في إغراءاتها، فضلاً عن اعتماد اقتصادها على عمليات النهب، الأمر الذي يتطلب التوسع المستمر. وقد ظهرت بوضوح قدرتها على القتال، ولكنها لم تثبت قدرة على إدارة الحكومة وتوفير الخدمات الأساسية، بالرغم من أنها باقية حتى الآن لمدة عام، ولا تزال تحتل مجموعة من الأراضي لأكثر من عامين.

وتعتمد الإستراتيجية الغربية جزئياً على الفرضية القائلة بأن استمرار الدولة الإسلامية في العراق والشام في الحكم سوف ينفر منه السُّنيون بلا شك، وسيدفعهم في نهاية الأمر إلى الانتفاض ضد التنظيم، كما فعلوا سابقاً حين تمردوا على مسلحين من تنظيم القاعدة خلال الحرب على العراق، فمهما كان موقفهم تجاه المتطرفين من الدولة الإسلامية، فإن أهل السُّنة من العراق سيكونون كارهين للانضمام للقوات التابعة للحكومة التي تسيطر عليها الشيعة أو للأمريكيين كما صدر منهم في عام 2006. وقد سقطت بعض العشائر السُّنية تحت سيطرة الدولة الإسلامية وعانت من عمليات الانتقام الوحشية. لقد تخلى الأمريكيون عنهم مرة وهم لا يؤمنون لهم الحماية الآن. ويظل التحول ضد الدولة الإسلامية محفوفاً بالمخاطر. وحتى إذا كانت القوات الأمريكية هناك، فمن غير المرجح أن أهل السُّنة يمكنهم مرة أخرى الوثوق في الدولة التي يؤمن الكثير بأنها تخلت عنهم بالخروج وترك الحكومة التي يقولون أن إيران تسيطر عليها.

إن تجميع القبائل السُّنية في العراق مرة أخرى سيتطلب إظهار خسارة الدولة الإسلامية وأنها حتماً ستندحر، وأن تلك القبائل سوف يبزغ نجمها مرة أخرى ضدهم، وسوف تتوفر لها الحماية ضد أي عمليات انتقام تقوم بها الدولة الإسلامية في هذه الأثناء، وأن الميليشيات الشيعية لن تتعامل مع أهل السُّنة الذين تم تحريرهم من سلطان الدولة الإسلامية على أنهم متخابرون ومستهدفون للنهب والانتقام. ولكن لا يمكن تحقيق أي من تلك الشروط في الوقت الحالي. وسيتطلب تجميع أهل السُّنة في سوريا تأكيدات مماثلة من الحماية ضد الدولة الإسلامية وانتقامها وتوفير مستقبل سياسي أفضل من ذلك المناخ الذي يوفره نظام الأسد.

إن جزءاً من الخطة الأمريكية هو خلق قوة علمانية مسلحة في سوريا تكون قادرة على طرد الدولة الإسلامية وغيرها من الجماعات الجهادية، فضلاً عن نظام الأسد ـــ بديلاً أكثر فعالية للجيش السوري الحر. وفي ظل هذه الظروف، فإن مقاتلي تلك القوة سيكونون من أهل السُّنة بشكل أساسي، وليس جميعهم. توقفت تلك الجهود بسبب الصعوبات في انتقاء (تدقيق) المتطوعين، ولكن كان بالإمكان حتى تحقيق الهدف المُعلن وهو 5,000 مقاتل، وهي لا تزال بالتأكيد وحدة صغيرة في الصراعات التي سيتجاوز فيها أعداؤها في أرض الميدان عشرات الآلاف. ومع الدعم الجوي الأمريكي، يكون ممكناً الدفاع عن إحدى المناطق في سوريا التي يمكن إقناع اللاجئين السوريين بالعودة إليها. ولم تتصور تلك القوة في بادئ الأمر أنها قد تقاتل في العراق، بالرغم من أنه يمكنها فعل ذلك.

سيستغرق إنشاء قوة أكبر وأكثر شدة استثمارات أكبر وسيكون الأمر محفوفاً بالمخاطر. ولكن يمكن القيام به. في جنوب فيتنام، أنشأت وحدة قوات خاصة أمريكية يبلغ قوامها نحو 2,000 مقاتل قوة محلية وأخرى للعمليات المضادة للمغاورين يبلغ قوامها 50,000 مقاتل، أغلبهم كان من رجال القبائل الجبلية في المنطقة.[16] اعتمدت فرق القوات الخاصة في الميدان على أنفسهم في اختيار الجنود، ولم يكن الاهتمام بالانتقاء (التدقيق) كبيراً ـــ وأُطلِق عليها اسم مجموعة الدفاع المدنية غير النظامية (CIDG)، وجرى إنشاؤها متبعين جماعة الفيتكونغ، وذلك مما لا شك فيه إلى جانب بعض المتسللين.

كان ذلك مجدياً في المجمل؛ ومع ذلك، استغرق الأمر سنوات، وكانت ثمة عقبات في الأمر. وتمت السيطرة على المخيمات. وكانت ثمة انتفاضات مسلحة. وكان جنود مجموعة الدفاع المدنية غير النظامية أكثر فعالية على أرضهم مما كانوا عليه في العمليات بعيدة المدى. وقد بُذلت جهود محدودة

بقدر أكبر لإنشاء قوة مماثلة في أفغانستان. ومن المحتمل أن يُنفذ الأمر في الشرق الأوسط أيضاً. ويكون لإنشاء قوة سُنية مقاتلة كبيرة وفعَّالة مما سينتج عنه عواقب سياسية. فالطموحات السياسية تأتي مع القوة العسكرية. ويمكن للجيش السُّني أن يرى في نفسه طليعة الدولة السُّنية. ويمكن لذلك أن يعقد الأمور.

الخيار الآخر، سيكون في أن تظل الأجزاء السُّنية في سوريا والعراق غير منسجمة وغير هادئة — معقلاً للمتطرفين الدينيين، ومصدراً مستمراً للصراع، وأراضي غير قابلة للزراعة دائماً

استمرار القتال في المستقبل المنظور

في ظل الظروف الراهنة، تبدو فكرة عقد مؤتمر دولي للسلام لإنهاء القتال في سوريا خيالية. فلا يبدو أن الحكومة الشيعية الجديدة ستكون قادرة أو راغبة في الوصول إلى تسوية سياسية مُرضية من شأنها تقويض المقاومة السُّنية. ومن المحتمل أن تستمر الصراعات المتشابكة.

لا يمكن لأي طرف من الأطراف هزيمة أعدائه. ويمكن أن يبدو ذلك للتحفيز للوصول إلى تسوية سياسية، ولكن الطبيعة الطائفية المتزايدة للتسابق جعلت من الصراع صراعَ حياة أو موت. فالمشاركون يقاتلون الآن من أجل حماية أنفسهم ضد عمليات الانتقام المتوقعة إذا وضعوا أسلحتهم. ولا يمكن فرض أي اتفاق بالقوة على الأطراف. ولا يمكن الوثوق في أي شخص كان. وبالنسبة لهؤلاء الذين يدفعهم إيمانهم، فإن التسوية تعني الردة.

ولن ينهي سقوط الأسد ولا هزيمة الدولة الإسلامية في العراق والشام الأعمال العدائية، فالحروب في كل من سوريا والعراق لم تعد منافسات بين جانبين اثنين. فالمتمردون الجهاديون في سوريا لن يقبلوا بأي حكومة في دمشق بخلاف تلك التي سيشكلونها، كما أن الجهاديين أنفسهم في حالة حرب مع بعضهم بعضاً من أجل الحكم.

في هذا الوقت، لا يبدو أن أياً من المشاركين الطائفيين يرغب في دفع الثمن اللازم لإحلال سلام دائم.

وإذا جرى اكتساح الجهاديين من أرض المعركة ولم يعودوا قادرين على العمل بشكل علني، فإن الدولة الإسلامية ستتابع نضالها على هيئة حروب العصابات والحملات الإرهابية، فهذا ما فعله أسلافهم منذ أكثر من عقد مضى. ولا يمكن لقيادة الدولة الإسلامية أن تأمر مقاتليها بوضع أسلحتهم، حتى في ظل الظروف التي تدفعها كثيراً للقيام بذلك. وإذا حدث تشتيت الدولة الإسلامية تحت الضغط العسكري، فإن ثمة جماعات متمردة سُنية أخرى تتعاون حالياً مع الدولة الإسلامية، ولكنها ستجذب مقاتليها وتتابع القتال. ولن ينهي أي اتفاق سياسي حالة التمرد تلك.

وفي الوقت الذي تبدو فيه التسويات الوطنية غير مرجحة، فإن حالات التسوية المحلية ممكنة. ومن شأن ذلك ألا يؤدي إلى منح اتفاقيات ولكن تفاهمات واقعية تخفض من مستوى العنف أو تسمح بأنشطة تجارية حتى مع استمرار الأعمال العدائية. في هذا الوقت، لا يبدو أن أياً من المشاركين الطائفيين يرغب في دفع الثمن اللازم لإحلال سلام دائم. ويسيطر الخوف وعدم الثقة على جميع الطوائف السياسية في العراق. وقد صرح الرئيس الكردي، Barzani، في عام 2003 بأن الشيعة يخافون من الماضي، والسُّنة يخافون من المستقبل، والأكراد يخافون من الماضي والمستقبل.[17]

القوى الأجنبية وتعرُّض مصالحها للخطر

تتعرض مصالح القوى الأجنبية للخطر في الصراعات المستمرة. ولكن بغياب التدخلات العسكرية المباشرة على نطاق واسع، التي يمكن أن يكون لها أثر مضاد، لا يمكن لأيٍ من القوى الأجنبية ضمان انتصار حلفائها أو هزيمة خصومها. وعلاوة على ذلك، تتنافس مصالح القوى الخارجية بدلاً من أن تكمل كل منها الأخرى. وقد يكون ذلك في وقت واحد بحيث تُقبل العودة إلى *الوضع السابق قبل الحرب*، ولكن لم يعد هذا ممكناً.

ويهدد تدفق اللاجئين، إلى جانب المتسللين من الجهاديين، استقرار لبنان والأردن؛ وحسب رؤية قادة الدولة الإسلامية، فإن كليهما جزء من سوريا

الكبرى، وبالتالي فإنهما يندرجان تحت طموحاتهم الفورية. وترغب كلتا الدولتين في إبعاد الصراع عن الانتشار في أراضيهما.

وترى المملكة العربية السعودية نفسها حامية السُّنة ضد العدوان الشيعي، حيث تعارض نظام الأسد والدور المتزايد الذي تلعبه إيران في الصراعات السورية والعراقية وفي اليمن، حيث يدعم السعوديون والإيرانيون جانبين مختلفين في الحرب الأهلية. وفي الوقت نفسه، تقلق المملكة العربية السعودية من تزايد نفوذ المتطرفين الجهاديين في سوريا والعراق والتهديد الذي يشكلونه على المملكة — حيث يمكن للدولة الإسلامية الانتقال جنوباً.

وترى إيران في نفسها قوة في المنطقة، ولكن مع تهديد تحالفها الإستراتيجي مع سوريا، وكون خط إمدادها إلى حزب الله قد أصبح في خطر، وكون حليفها الجديد في بغداد قد أصبح تحت وطأة هجوم أهل السُّنة، يمكن أن تخسر إيران مواقعها الحيوية في العالم العربي. ونظراً لأن العنصر الطائفي يعمق من تلك الصراعات، فإن طهران تمارس دور حامي الشيعة. وإذا مارست إيران دوراً أكبر وأكثر نجاحاً على ما يبدو منذ بدء الانتفاضة في سوريا، فسيرجع سبب ذلك إلى أن لديها الكثير لتخسره والكثير من البطاقات لتمارس به الضغوط.

لا تزال تركيا مصممة على إسقاط الأسد ودعم المتمردين. وفي الوقت نفسه، فإنها تشعر بالقلق حيال ظهور كيان سياسي كردي مستقل في سوريا والعراق يؤدي إلى تفاقم المشاعر الانفصالية في تركيا. وقد دفع التهديد المتزايد الذي يشكله الجهاديون والمخاوف بشأن عودة المقاتلين الأجانب تركيا إلى أن تصبح معتدلة في دعم العناصر الجهادية.

تمتلك إسرائيل رؤية عملية للأمور. فنظام الأسد يوفر رابطاً أساسياً بين إيران وحزب الله، ولكنه يحافظ على سلامة حدود إسرائيل منذ 40 عاماً. ويرى الإسرائيليون أن الأسد سبب المشكلات، ولكن وجوده له حكمته. فالخطر المتزايد على أمن إسرائيل يتمثل في حشود الجهاديين الخارجين عن السيطرة على حدودها. وينصب الاهتمام الإسرائيلي الرئيسي في منع إيران من إضافة أسلحة إلى ترسانة حزب الله، وهو ما دفعها إلى التدخل عسكرياً في سوريا في عدة مناسبات.

ينظر الكثيرون إلى أمريكا لتوفير قوة حاسمة، ولكن ظلت الولايات المتحدة حذرة بشأن مستوى التدخل العسكري في الصراعات. فهي توفر أشكالاً عدة من المساعدة للدول المحيطة، لا سيما الأردن. وكانت المساعدات المادية للمتمردين في سوريا بطيئة ومتواضعة نظراً للقلق من أن تسقط الأسلحة التي تقدمها أمريكا في أيدي الجهاديين. وقادت الولايات المتحدة حملة جوية ضد الدولة الإسلامية في العراق والشام، وأثبتت حسمها في منع تقدم الدولة الإسلامية تجاه المناطق التي يسيطر عليها الأكراد في شمال العراق وفي سقوط كوباني في شمال سوريا. وقد ساعد القصف الجوي القوات الحكومية العراقية، لكنه لم يمنع سقوط الرمادي. وفي غياب قوة ذات فعالية على الأرض، يمكن للقوة الجوية إضعاف هجمات العدو، ولكنها لا تستطيع السيطرة على الأراضي. وقد تم نشر عدة آلاف من الجنود في العراق لحماية المنشآت الدبلوماسية في بغداد وأربيل، وللمساعدة في تنسيق العمليات، وتوفير التدريب، دون وجود أي دور قتالي لهم. وقد أوقفت الولايات المتحدة نشر "القوات البرية" لمهاجمة الدولة الإسلامية في العراق والشام والتزمت بالمشاركة المباشرة في جهود مكافحة الإرهاب التي أثبتت فعاليتها في الحد من أنشطة تنظيم القاعدة في العراق في الفترة ما بين عامي 2005 و2011.

وقد أثار هذا التردد انتقادات حادة بشأن إستراتيجية الحكومة، التي لا تدعو لاستثمار عسكري كبير فيما يمكن النظر إليه في الولايات المتحدة على أنه حرب العراق الثالثة. ويرى النقاد أن القوات الأمريكية — التي يتراوح عددها بين 10,000 و25,000 جندي — يمكن أن تعزز من الدفاعات المحلية في المناطق الحرجة، وتعزز من فعالية الحملة الجوية، وتحث الوحدات العراقية

على المحاربة بضراوة. (في الواقع، هم يقاتلون بمجهود أقل، ويتركون الأعمال الدموية ليقوم بها الأمريكيون.)[18] والحضور المباشر للوحدات القتالية الأمريكية قد يزيد أيضاً من احتمالات أن بعض العشائر السُّنية، المتضجرة من حكم الدولة الإسلامية في العراق والشام، سوف تتلقى المُغريات لتنقلب على الدولة الإسلامية، ولكن كما ذكر سابقاً، سيتمنّع العديد منها من المخاطرة حيث يتم التخلي عنها مرة أخرى.

يمكن أيضًا الاستفادة من الوحدات الأمريكية لتكون قوة ضاربة متنقلة. فالمهمة الأكثر طموحًا وتكلفة بالنسبة للقوات الأمريكية ستكون طرد قوات الدولة الإسلامية في العراق والشام خارج المدن والبلدات التي تسيطر عليها الآن. وتتسبب حروب المدن، لا سيما ضد المقاتلين الملثمين، في تدمير الجيوش. وكما رأينا في مناسبات عديدة، من معركة هيو في عام 1968 إلى معركة الفلوجة الثانية في عام 2004، من الممكن أن تصبح المشاركات المدنية معارك ضارية. وقد شارك أكثر من 13,000 جندي أمريكي، وبريطاني، وعراقي في معركة الفلوجة، وقد عانوا من خسائر بشرية قاربت 1,000 نفس.

وقد تستغرق السيطرة على الأرض بعد هزيمة قوات العدو التزاماً كبيراً من القوات، وتُترك عمليات تطهير المدن من قوات الدولة الإسلامية في العراق والشام وعمليات التمشيط والسيطرة للقوات العراقية (أو الميليشيات الشيعية)، وبالنسبة للمخاطر التي تربط الولايات المتحدة بالثأر، فمن المحتمل أن تلحق بالمقاتلين السُّنيين والمدنيين، إلى جانب أن وحشية الدولة الإسلامية لا مفر منها تقريباً.

ينظر الكثيرون إلى أمريكا لتوفير قوة حاسمة، ولكن ظلت الولايات المتحدة حذرة بشأن مستوى التدخل العسكري في الصراعات.

المهمة التالية الممكنة بالنسبة للقوات الأمريكية يمكن أن تخلق مناطق محمية للاجئين. وفي عام 2012، دعى السيناتور John McCain والسيناتور Joe Lieberman وأربعة آخرون لإنشاء "مناطق آمنة" داخل سوريا، حيث يمكن أن يجد اللاجئون ملاذات آمنة ويمكن تدريب المتمردين وتسليحهم ضد نظام الأسد.[19]

إن كل تلك المهام الممكنة محفوفة بالمخاطر. ويمكن أن تؤدي المشاركة الأمريكية المباشرة إلى خسائر فادحة بين جنود القوات الأمريكية والمدنيين العراقيين. ومن بين تلك الخسائر المحتملة قطع رؤوس أي أمريكي يقع أسيراً، وهو ما يزيد من الضغوط الرامية إلى تصعيد القتال. وستلهم المشاركة الأكبر للولايات المتحدة تجنيد الإرهابيين وزيادة التهديد بوقوع هجمات إرهابية في الخارج وفي الولايات المتحدة. ومن مخاطر ذلك احتمالية أن تشارك الولايات المتحدة في حملة طويلة لمكافحة التمرد، ويتعقد الأمر بسبب وجود ملاذ للمتمردين في سوريا، وهو ما سيتطلب توسيع العمليات العسكرية. ويمكن أن يؤدي إلى فترة طويلة من الاحتلال وفقدان الدعم الدولي. ولن يكون تدخل الولايات المتحدة محل ترحيب من الشيعة في العراق، الذين سيجددون من عداوتهم للقوات الأمريكية، سواء بتحريض إيراني أو بدونه. وبينما يدعم الأمريكان حالياً حملة القصف، فإن القتال الصعب على أرض الواقع يمكن أن يعكس ذلك الدعم بسرعة.[20]

المقاتلون الأجانب واستمرار تشكيل تهديد عالمي

وفقاً للأرقام المعلن عنها في بداية عام 2015، سافر نحو 20,000 أجنبي إلى سوريا والعراق للانضمام إلى المقاومة. وقد انضم أغلبهم للجماعات الجهادية، وبعد انشقاق الدولة الإسلامية في العراق والشمال عن الجماعات الجهادية الأخرى، انتقل أغلب المقاتلين إلى تنظيم الدولة الإسلامية. هذا وقد حضر من أوروبا والدول الغربية الأخرى نحو 3,400 مقاتل.[21] وبالرغم من حملة القصف الموجهة ضد الدولة الإسلامية في العراق والشام، إلا أن المتطوعين تابعوا توجههم إلى سوريا والعراق ـــ أشار رئيس الوزراء الفرنسي إلى أنه بنهاية عام 2015 سيتوجه ما يصل إلى 10,000 متطوع من أوروبا إلى هذين

البلدين.[22] هذا الرقم غير دقيق ما يجعل من الصعب تقييم ما إذا كانت حملة التحالف تُبطئ من هذا التدفق أم لا؛ ومع ذلك، فإن المناقشات الخاصة بين المسؤولين الألمان والفرنسيين في حزيران من عام 2015 أشارت إلى أنه حتى الآن ليس ثمة دليل على تقلص عدد الأوروبيين الذين ذهبوا إلى سوريا والعراق أو الساعين نحو ذلك. ووفقاً لأحد تقديرات يقدمها مكتب التحقيقات الفدرالي، ازداد عدد الأمريكيين الذين ذهبوا إلى سوريا أو حاولوا الذهاب إليها بقدرٍ كبير.[23]

وتؤكد عمليات التجنيد التي تتبعها الدولة الإسلامية في العراق والشام عنفاً غير محدود ضد أي تابع لأهل السُّنة تنظر إليه على أنه مرتد، وضد الشيعة حيث تنظر إليهم على أنهم مرتدون، وأي كافر غير مسلم كدليل على حماسة التنظيم وأصالته. وقد جذب التنظيم عدداً كبيراً من المتطوعين الأجانب، حيث أثارتهم الآراء المتطرفة والممارسات الوحشية. ولضمان ولائهم المستمر، كانت الدولة الإسلامية وحسب ما تذكر التقارير تدرج أسماءهم في الأعمال الوحشية لتمنع من مغادرة التنظيم مطلقاً. ويشكل هؤلاء المقاتلون الأجانب جزءاً بارزاً من القوام الإجمالي لقوة الدولة الإسلامية، وهم من تعتمد عليهم وعلى قوتهم لاستمرار الأعمال الوحشية. ليس ثمة حافز لإنهاء القتال. وبالرغم من أن البعض قد يخيب أمله، إلا أن معظمهم يمكن أن يتوقع معاملة قاسية في حال عودته إلى الوطن. كما أنه ليس ثمة سبيل للرجوع — يجب عليهم الاستمرار في القتال. وقد تعرض العديد منهم بلا شك للقتل.

وإذا كان للضغط العسكري سبيل لمنع العمل العلني، فمن المحتمل أن تستمر الدولة الإسلامية — أو خلفاؤها — في حملتها، ولكن لن يكون سهلاً على المقاتلين الأجانب الاندماج مع السكان المحليين، لا سيما السكان الذين يرون في التحول ضدهم منفعة. ولن يبقى الكثيرون على قيد الحياة. وقد يتبعثر عدد منهم في أنحاء الأرض المختلفة، فالعديد منهم قد يلتحق بجبهات جهادية أخرى في ليبيا، أو أفغانستان، أو القوقاز، أو بجبهات جديدة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وتشعر الحكومات الغربية بالقلق الآن حيال بعض المقاتلين الذين ترسلهم الدولة الإسلامية للتخطيط للثأر، وحيال أنهم سيعودون لتنفيذ هجمات إرهابية في موطنهم. ويقترح بعض المسؤولين الغربيين أنه من الأفضل أن يظل المقاتلون الأجانب محاصرين في منطقة الصراع الحالية.

يشكل اللاجئون السوريون واحداً من بين كل أربعة من إجمالي السكان في لبنان؛ وواحداً من بين كل عشرة من إجمال السكان في الأردن

نزوح الملايين من اللاجئين بشكل دائم

شهدت سوريا أكثر من 200,000 قتيل خلال الحرب الأهلية. وتحول نصف سكان البلد إلى لاجئين، فقد شهدت الدول الخارجية تسجيل 4 ملايين لاجئ و7 ملايين نازح داخلي.[٢٤] (للمقارنة، بلغ إجمالي عدد سكان أوروبا في عام 1940 نحو 542 مليون نسمة، ونزح ما يتراوح بين 11 مليون و20 مليون نسمة، أو ما يُقدَّر بنحو 4 بالمئة من السكان بسبب القتال في الحرب العالمية الثانية.) ومع استمرار القتال، استمرت الزيادة في أعداد الوفيات واللاجئين. وهذا يُعد كارثة إنسانية.

إن حملة مكافحة التمرد في سوريا دمرت عن عمد التجارة وتقديم الخدمات العامة الأساسية إلى مناطق لا تخضع لسيطرة الحكومة. ودون وجود دلالات على إنهاء العنف قريباً، فلن يكون بالإمكان الرجوع وإعادة التوطين. وفي الوقت نفسه، تقتصر قدرة البلدان المحيطة على استيعاب 4 ملايين لاجئ بشكل دائم. وتضم لبنان والأردن ما يقرب من مليوني لاجئ سوري على أراضيهما. ويشكل اللاجئون السوريون واحداً من بين كل أربعة من إجمالي السكان في لبنان؛ وواحداً من بين كل عشرة من إجمال السكان في الأردن. وهذا الأمر ليس مجرد مسألة استغلال للموارد المحدودة. فاستيعاب اللاجئين بشكل رسمي من شأنه أن يغير من الموازين الطائفية والسياسية المحلية. ومن ناحية أخرى، يزيد وجودهم من خطر اتساع الصراع السوري ليشمل كلا البلدين.

الآثار المترتبة على السياسة الأمريكية

كما أشرنا في البداية، يقدم هذا المقال تقييماً للوضع الحالي. ولا يهدف إلى تقديم وصفات سياسية. ومع ذلك، فإنه يثير تساؤلات أساسية يجب على صانعي القرارات السياسية تناولها.

نستنتج أن الصراعات في سوريا والعراق في حالة جمود؛ وأن الانقسامات الطائفية والعرقية المتزايدة هي الدافعة للصراع؛ وأن الجيوش الكبيرة في سوريا والعراق لا يمكنها منع التحديات التي تواجه السلطة، وأن السلطة انتقلت إلى الميليشيات؛ وأن الانقسامات التي يشهدها كلا البلدين ستستمر ولن يكون سهلاً استعادة الوحدة الوطنية؛ وأن مستقبل أهل السُّنة تحت سيطرة الدولة الإسلامية، أو نظام الأسد، أو الشيعة في بغداد أو كدولة مستقلة يظل موضع شك؛ وأنه يجب قبول استمرار حالة القتال؛ وأنه بدون استثمارات عسكرية كبيرة، فإن القوى الأجنبية (باستثناء إيران) ستكون مهمشة؛ وأن الآلاف من المقاتلين الأجانب ينجذبون للشعارات الجهادية التي تشكل تهديداً طويل الأجل؛ وأن الملايين من اللاجئين قد نزحوا نتيجة الصراعات ولن يمكنهم العودة طالما لا يزال العنف مستمراً.

ومع ذلك، فهم يناقضون السياسة الأمريكية. وتتحدى الفكرة المجرَّدة بدوام حالة الجمود العسكري لسنوات، أو لعقود، شعور أمريكا بالتقدم. وتتسم القيم بالحكم العلماني الديمقراطي والتسامح الديني. تعمل الولايات المتحدة حالياً على الفرضية القائلة بأن الانقسامات الطائفية يمكن أن تعيق طريق الحكومات الراغبة في مشاركة السلطة السياسية والموارد الوطنية.

ولا تزال الولايات المتحدة في سياستها ملتزمة بالوحدة الوطنية في سوريا والعراق — لا يتوفر للدبلوماسيين الأمريكيين سوى خيارات قليلة. وعلى عكس تغيير الحدود بالقوة ووجود الدولة الإسلامية، لا يمكن لواشنطن أن تفلت من التزامها تجاه الدول الموحدة. والتقسيم يكون صعب القبول، كما أنه يؤدي إلى التدمير والتخريب.

تعمل الولايات المتحدة حالياً على الفرضية القائلة بأن الانقسامات الطائفية يمكن أن تعيق طريق الحكومات الراغبة في مشاركة السلطة السياسية والموارد الوطنية.

تسعى الولايات المتحدة في العراق إلى إعادة بناء القوات المسلحة بحيث تكون قادرة على استعادة سلطة الحكومة في جميع أنحاء الأراضي الوطنية. بينما تسعى الولايات المتحدة في سوريا إلى وجود حكومة بدلاً من نظام الأسد تكون قادرة على هز الجهاديين وإعادة توحيد البلاد. وتَعقد الآمال على أهل السُّنة بأن يدحضوا الدولة الإسلامية، ولكنها لا تمتلك أي مقترحات ملموسة تقبلها الحكومة بقيادة الشيعة (ووعد بالحماية) لمنحها لهم.

وكانت وجهة النظر القائلة بوجود احتمال أكثر لتتحقق الوحدة الوطنية والحفاظ عليها — إن كانت قد تحققت — فقط باستخدام السلاح أمراً غير مقبول. وهذا ليس قولاً بأنه ينبغي أن يكون دور الولايات المتحدة الإشراف على ترسيم الحدود في المنطقة من جديد، ولكن ينبغي أن تكون قادرة على الأقل للتفكير بشأن طريقة التفكير مع الواقع الحالي للدويلات، الذي من الممكن أن يستمر لعقود، أو طريقة تعاملها مع إعلانات الاستقلال أو محاولات توحيد البلاد بالقوة الغاشمة. على سبيل المثال، ماذا يحدث إذا أصر الأكراد بوضوح على استقلالهم، أو ماذا إذا أغار عليهم الجيش العراقي الذي خضع للتدريب على يد الأمريكان؟

لا تزال سياسات الولايات المتحدة ملتزمة بالوصول إلى الوحدة الوطنية في سوريا والعراق.-دبلوماسيوا أمريكا لديهم خيارات محدودة. مع معارضة تغيير الحدود بالقوة، فحتمية الانهيار مرفوضة من واشنطن. وتعيق هذه

العقلية التفكير الإبداعي بشأن التسويات المحلية التي يمكن أن توفر نهجاً تدريجياً للحد من أعمال العنف. ويشهد العالم حرباً أهلية مستمرة بين الشيعة، والسُّنة، والأكراد، فضلاً عن مختلف الفصائل داخل المجتمعات الشيعية والسُّنية. يستمر العنف بسبب الخوف من الفناء الذي يصاحب الهزيمة والسيطرة من أحد الخصوم الحاليين، والسعي نحو السلطة والثروة بين قيادات كل طائفة من الطوائف المتنافسة. ويُشعَل فتيل العنف في كلا البلدين من قبل الجهات الفاعلة وهي الدول الخارجية والدول المجاورة التي تتنافس على السلطة والنفوذ. ولا يقتصر الانقسام الطائفي بين السُّنة والشيعة على مجرد تنافس بينهما، فهو سعي من أجل الهيمنة بين الفرس (إيران) والعرب (المملكة العربية السعودية ودول الخليج)، والأكراد، والعثمانيين (الأتراك)، وتنضم إليهم مصر نظراً للوضع في اليمن.

وكل عملية قتل لمواطن أمريكي، وجميع الأعمال الوحشية المعروضة للعامة، وكل تغريدة ينشرها مقاتلو الدولة الإسلامية لتحث الآخرين على تنفيذ هجمات في الولايات المتحدة؛ تؤدي إلى تجدد الضغوط السياسية على الإدارة لزيادة المشاركة العسكرية الأمريكية في الصراعات.

وفي الوقت الذي تناقش فيه واشنطن الإستراتيجيات المرتبطة بمدى فاعلية حملة القصف وأنها ستكون كافية أم أنه يلزم مشاركة القوات البرية الأمريكية، يكون من الهرطقة اقتراح أن تكون الولايات المتحدة على هامش هذه الصراعات. ويمكن أن تصبح الولايات محارباً آخر على الأرض، محارباً قوياً، ولكن من الصعب التنبؤ بتأثير هذا على مسار الصراعات وما إذا كان التأثير إيجابياً أم سلبياً.

وثمة سؤال آخر أيضاً يرتبط بشأن ما إذا كانت الولايات المتحدة ملزمة بمساعدة المتمردين السوريين أم الحكومة العراقية. هل حقيقة أن القوات الأمريكية قامت بغزو العراق وأطاحت بصدام حسين تجعل الولايات المتحدة ملزمة بضمان الأمن في العراق إلى الأبد؟ عندما انسحبت القوات الأمريكية في 2011 ــــ نتيجة لفشل رئيس الوزراء المالكي واضطر الرئيس الأمريكي أوباما إلى العثور على وسيلة مقبولة من الطرفين للحفاظ على القوة المتبقية ــــ هل نكثت الولايات المتحدة وعدها؟

يثير هذا الأمر سؤالاً آخر: من الذي قاتل في هذه المعركة؟ فالبعض يقول أن الحرب كانت في العراق، وأن الولايات المتحدة بإمكانها المساعدة إلى حد ما، ولكن إذا لم يقاتل العراقيون، فإنه لن يكون بمقدور الولايات المتحدة القتال نيابة عنهم.

ويرى أنصار المشاركة الأمريكية الأكبر أن الصراعات في سوريا والعراق أصبحت امتداداً للحملة العالمية التي بدأت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ــــ ويجب أن تهزم الولايات المتحدة الدولة الإسلامية في العراق والشام وغيرها من الجماعات الجهادية بسبب أنها تشكل تهديدات إرهابية مباشرة للولايات المتحدة. (وافق الرئيس أوباما على التمديد كسلطة قانونية للعمل العسكري الأمريكي، ولكن لم يكن ضرورياً القول بفرضية استمرار الجهود العسكرية ضد المؤسسة الجهادية وإلزام الولايات المتحدة بزيادة مشاركتها العسكرية في سوريا أو العراق.)

ويقول هؤلاء المناصرون أيضاً أنه يجب على الولايات المتحدة القتال في سوريا والعراق لحماية مصالحها الحيوية وللحيلولة دون أن يصبح الوضع أكثر خطورة مع عدم الاستقرار في المنطقة، وإنهاء الهيمنة الإيرانية، وإثبات مصداقية الولايات المتحدة كحليف، وطرح التسوية على الأعداء المحتملين، مثل روسيا والصين. ودون تحدي وجهة النظر القائلة بأن سلطة أمريكا تُستخدم للخير العام هذه هي الحجج الإمبريالية.

ويعارض بعض الأمريكيين أي مزيد من التدخل العسكري الأمريكي في حروب الشرق الأوسط التي لا تنتهي على ما يبدو، حيث يرون أن ذلك لا يزيد الأمر إلا سوءاً. وأكد السيناتور Rand Paul، متنبئاً بما قد يكون محل نقاش كبير في حملة الانتخابات الرئاسية لعام 2016، أن الجهود العسكرية الأمريكية في ليبيا، وسوريا، والعراق قد ساهمت في القوة المتزايدة للدولة الإسلامية في العراق والشام.[25]

وسقط البعض بين الجدالات القائلة بأنه يجب على أمريكا التوجه لهزيمة الدولة الإسلامية أو أن أمريكا قد استنفدت دورها في الشرق الأوسط، ويجب أن تبقى بعيدة. ويقولون إن الولايات المتحدة ملتزمة بتشجيع الديمقراطية، والحكومة العلمانية، وحقوق الإنسان؛ ومعارضة الطغاة مثل نظام الأسد والدولة الإسلامية؛ وحماية الأقليات المهددة؛ ومساعدة الحلفاء المستحقين؛ والحث على التسويات السياسية، لا سيما من خلال الدبلوماسية، ولكن إذا لزم الأمر، فسيكون ذلك من خلال الاستخدام المحدود والحكيم للقوة العسكرية. وهذا الاستعمال الحكيم للقوة العسكرية نفسه يشكل موضوعاً للنقاش.

لا توجد خيارات سهلة لسياسة الولايات المتحدة — فليست ثمة إجابات صحيحة أو خاطئة. كما أن كل مسار محتمل يحمل بين طياته مجموعة من التكاليف والمخاطر المختلفة عن غيرها. ومن الواضح أنه من المستحيل تناول أي موضوع من تلك المواضيع بمعزل عن غيره. فما نحتاج إليه هو إستراتيجية إقليمية توفر إمكانية التأمين والتقدم على المدى البعيد للمصالح الأمريكية. ويجب أن تتناول مثل تلك الإستراتيجية الحرب الطائفية في سوريا والعراق، والنفوذ المتنامي للدولة الإسلامية في العراق والشام، والمحن التي يعاني منها الأكراد والأقليات الأخرى، فضلاً عن علاقات القوة القائمة بين الدول الإقليمية. ودون وجود إستراتيجية شاملة تتضمن تفاصيل ما تريد الولايات المتحدة تحقيقه، ودون وجود الموارد التي تكون على استعداد لتخصيصها لتحقيق تلك الأهداف، ودون تحديد أساليب لاستخدام تلك الموارد — بالتنسيق مع الآخرين —، فإن أي خيار سياسي يحتمل أن يتناول أعراض المشكلة لا المشكلة نفسها. يعكس ذلك أجندة طموحة ربما تتجاوز الدور الذي تفكر فيه الولايات المتحدة بأنها يمكن أن تمارسه ومستوى الموارد التي يكون الرأي العام الأمريكي على استعداد لدعمها.

إن النقاش السياسي يمكن أن يشكل الرأي العام، ومن ثمَّ الإجراء الحكومي في نهاية المطاف، ولكنه يمكن أن يحجب تعقيد الاختيارات. ويمكن أن يؤدي الأمر إلى عدم توافق بين التناسق المحسوب المخصص لتهدئة الذعر العام، والغضب، والاتهامات الحادة نتيجة الضعف، والاستجابات للتحذيرات التي تهدف إلى تفادي إغراق البلاد في حملات عسكرية مدمرة ومكلفة سيعارضها الشعب. وليس ثَم جديد بشأن هذه المشكلة. فهي تتأتى مع الدور البارز الذي تمارسه الولايات المتحدة في العالم والملازم للديمقراطية في أمريكا. ومع ذلك، فإن الأهداف الوطنية يجب أن تكون قائمة على أساس التقييمات الواقعية للوضع الحالي؛ وهنا، تبدو المسافة بين التطلعات والواقع الحالي كبيرة. ■

ملاحظات

[1] The Aspen Institute, *Program of the Aspen Security Forum*, July 22–25, 2015. As of September 4, 2015: www.aspensecurityforum.org/agenda/.

[2] See Brian Michael Jenkins, *The Dynamics of Syria's Civil War*, Santa Monica, Calif.: PE-115-RC, 2014; *Brothers Killing Brothers: The Current Infighting Will Test al Qaeda's Brand*, Santa Monica, Calif.: RAND Corporation, PE-123-RC, 2014; and *When Jihadis Come Marching Home: The Terrorist Threat Posed by Westerners Returning from Syria and Iraq*, Santa Monica, Calif.: RAND Corporation, PE-130-1-RC, 2015. See also Jenkins, "Iraq Observations," The Hill, website, June 19, 2014; "Further Observations on Iraq," The Hill, website, July 14, 2014; "Iraq Makes Strange Bedfellows," *U.S. News & World Report*, July 15, 2014; "An Evil Wind," *Slate*, July 31, 2014; "Disrupting Terrorist Safe Havens," The Hill, website, August 18, 2014; "Islamic State's Risky Business," Bloomberg, website, August 28, 2014; "An Inconvenient War," The Hill, website, September 25, 2014; "What Are ISIS's Options Now?" The Hill, website, October 10, 2014; "What Could U.S. Boots on the Ground Do in Syria and Iraq?" Defense One, website, October 15, 2014; "Air Campaign Against ISIS Just Getting Off the Ground," The Hill, website, October 17, 2014; "Is Obama a Modern-Day Quintus Fabius Maximus?" *Los Angeles Times*, October 22, 2014; "When Jihadis Come Marching Home," The Hill, website, November 19, 2014; "Eight Lessons from the Charlie Hebdo Attack," *Slate*, January 23, 2015; "ISIS's Calculated Barbarity," The Hill, website, February 10, 2015; and "Inside the Terrorist Factory," The RAND Blog and www.GlobalSecurity.org, March 30, 2015. As of September 4, 2015: http://www.rand.org/blog/2015/03/inside-the-terrorist-factory.html.

[3] I am indebted to Andrew Liepman, Rick Brennan, and Seth Jones for their helpful comments in the preparation of this paper.

[4] "Department of Defense Press Briefing by Secretary Hagel and General Dempsey in the Pentagon Briefing Room," August 21, 2014, *News Transcript*, U.S. Department of Defense. As of September 4, 2015: www.defense.gov/transcripts/transcript.aspx?transcriptid=5491.

[5] Jaime Fuller, "Eric Holder on threats from Syria: 'It's more frightening than anything I think I've seen as attorney general,'" *Washington Post*, July 13, 2014. As of September 4, 2015: www.washingtonpost.com/blogs/post-politics/wp/2014/07/13/eric-holder-on-threats-from-syria-its-more-frightening-than-anything-i-think-ive-seen-as-attorney-general/.

[6] Phil Cross, "Senator Inhofe warns of potential terrorist attacks on U.S. soil, "Fox 25-KOKH Oklahoma City, website, August 20, 2014. As of September 4, 2015: www.okcfox.com/story/26331734/senator-inhofe-warns-of-potential-terrorist-attacks-on-us-soil.

[7] Brent Budowsky, "Budowsky: ISIS poses nuclear 9/11 threat," The Hill, website, August 26, 2014. As of September 4, 2015: www.thehill.com/opinion/brent-budowsky/215603-brent-budowsky-isis-poses-9-11-scope-threat; Mike Lillis, "Perry: 'Real possibility' ISIS in US," The Hill, website, August 21, 2014. As of September 4, 2015: www.thehill.com/policy/international/215704-perry-real-possibility-isis-already-in-us.

[8] For a full discussion of the American withdrawal from Iraq, see Rick Brennan, "Withdrawal Symptoms: The Bungling of the Iraq Exit," *Foreign Affairs*, November/December 2014, pp. 25–36.

[9] Philip Bump, "Lindsey Graham: We need troops to fight Islamic State 'before we all get killed here at home,' " *Washington Post*, September 14, 2014. As of September 4, 2015: www.washingtonpost.com/blogs/post-politics/wp/2014/09/14/lindsey-graham-we-need-troops-to-fight-islamic-state-before-we-all-get-killed-here-at-home/.

[10] Reporting Secretary of Defense Ashton Carter's testimony before the Senate Armed Services Committee, Jennifer Rizzo, "Carter: U.S. trains only 60 Syrian rebels," CNN Politics, website, July 7, 2015. As of September 4, 2015: www.cnn.com/2015/07/07/politics/united-states-training-syrian-rebels-ashton-carter/.

[11] Syrian Observatory for Human Rights, "76,021 people killed in Syria in 2014," January 1, 2015. As of September 4, 2015: www.syriahr.com/en/2015/01/76021-people-killed-in-20014/. Syria's casualty figures are controversial and the Syrian Observatory for Human Rights is an opposition organization; however, a report commissioned by the United Nations High Commission for Refugees stated that by August 2014, there had been 191,369 "documented killings" (Human Rights Data Analysis Group, *Updated Statistical Analysis of Documentation of Killings in the Syrian Arab Republic*, August 2014. As of September 4, 2015: www.ohchr.org/Documents/Countries/SY/HRDAGUpdatedReportAug2014.pdf).

[12] By December 2014, the United Nations High Commission for Refugees was reporting 11.6 million Syrian refugees, including 7.6 internally displaced persons. Syria's total population in 2013 was estimated to be 22.8 million (UNHCR, "2015 UNHCR country operations profile—Syrian Arab Republic," undated. As of September 4, 2015: www.unhcr.org/pages/49e486a76.html).

[13] Fox News, "ISIS controls 50 percent of Syria after takeover of Palmyra, activists say," www.FoxNews.com, website, May 21, 2015. As of September 4, 2015: www.foxnews.com/world/2015/05/21/isis-controls-50-percent-syria-after-takeover-palmyra-monitoring-group-says/.

[14] I am aware that the survivability of the Islamic State remains a matter of heated debate. Some argue that the Islamic State must inevitably fail as a viable governing enterprise that controls territory; others are less certain. See Tim Arango, "ISIS

[20] Peyton M. Craighill, "Why Americans' Support for Bombing ISIS May Not Last," *Washington Post*, September 22, 2014. As of September 4, 2015: www.washingtonpost.com/news/storyline/wp/2014/09/22/why-americans-support-for-bombing-isis-may-not-last/. Public opinion polls in early 2015 showed that a majority of Americans wanted U.S. ground troops to take on ISIS, but data from previous wars in Korea, Vietnam, Afghanistan, and Iraq show that this support erodes once the fighting begins. It is, however, not that simple. Much depends on the public's perceptions of the stakes and of progress in the war effort. This is an area where RAND has done a great deal of research. See, for example, Eric V. Larson, *Public Support for U.S. Military Operations*, Santa Monica, Calif.: RAND Corporation, RB-2502, 1996, and Eric V. Larson, *American Public Support for U.S. Military Operations from Mogadishu to Baghdad*, Santa Monica, Calif.: RAND Corporation, MG-231-A, 2005.

[21] Nicholas J. Rasmussen, Director of the National Counterterrorism Center, "Countering Violent Islamist Extremism: The Urgent Threat of Foreign Fighters and Homegrown Terror," testimony before the House Committee on Homeland Security, February 11, 2015.

[22] "French Prime Minister Warns 10,000 Europeans Could Be in Iraq and Syria by Year's End," www.USNews.net, website, March 8, 2015. As of September 4, 2015: www.usnews.net/index.php/sid/230889591.

[23] Lindsay Dunsmuir, "Over 200 Americans have gone or tried to go to Syria to Fight: FBI," Reuters, website, July 8, 2015. As of September 4, 2015: www.reuters.com/article/2015/07/08/us-mideast-crisis-americans-idUSKCN0PI2E320150708.

[24] UNHCR, "Syria Refugee Regional Response," Inter-agency Information Sharing Portal, website, August 29, 2015. As of September 4, 2015: www.data.unhcr.org/syrianrefugees/regional.php.

[25] Jesse Byrnes, "Rand Paul blames republican hawks for growth of ISIS," The Hill, website, May 27, 2015. As of September 4, 2015: www.thehill.com/blogs/ballot-box/presidential-races/243171-rand-paul-blames-republican-hawks-for-growth-of-isis.

Transforming into Functioning State That Uses Terror as a Tool," *New York Times*, July 21, 2015. As of September 4, 2015: www.nytimes.com/2015/07/22/world/middleeast/isis-transforming-into-functioning-state-that-uses-terror-as-tool.html?_r=0.

[15] "Arabs, Beware the 'Small State' Option," *Al Akhbar English*, July 29, 2013. As of September 4, 2015, a slight variation of this article remained posted online at www.mideastshuffle.com/2013/07/31/arabs-beware-the-small-states-option/.

[16] Department of the Army, *Vietnam Studies: U.S. Army Special Forces*, 1961–1971, Washington, D.C., 1973. As of September 4, 2015: www.history.army.mil/books/Vietnam/90-23/90-23C.htm. See also Rebecca Onion, "The Snake-Eaters and the Yards," *Great Moments in Military History*, Slate, November 27, 2013. As of September 4, 2015: www.slate.com/articles/news_and_politics/american_military_history/2013/11/the_green_berets_and_the_montagnards_how_an_indigenous_tribe_won_the_admiration.html. The author of the present essay served in the Fifth Special Forces Group's CIDG program in 1966–1967 and as part of the Long Range Planning Group in Vietnam, 1968–1969, returning to Vietnam in 1971.

[17] Emma Sky, *The Unraveling: High Hopes and Missed Opportunities in Iraq*, New York: Public Affairs, 2015, Chapter 9.

[18] Theodore Schleifer, "Lindsay Graham Calls for 10,000 U.S. Troops in Iraq," CNN Politics, website, May 18, 2015. As of September 4, 2015: www.cnn.com/2015/05/18/politics/lindsey-graham-iraq-not-a-mistake-election-2016/; Kimberly Kagan, Frederick W. Kagan, and Jessica D. Lewis, *A Strategy to Defeat the Islamic State*, Washington, D.C.: Institute for the Study of War, 2014. As of September 4, 2015: www.understandingwar.org/sites/default/files/Defeating%20ISIS_0.pdf.

[19] Josh Rogin, "McCain Resolution Calls for Safe Zones and Arming the Syrian Opposition," www.foreignpolicy.com, website, March 28, 2012. As of September 4, 2015: www.foreignpolicy.com/2012/03/28/mccain-resolution-calls-for-safe-zones-and-arming-the-syrian-opposition/.

نبذة عن هذا المنظور

هذا المقال هو الرابع ضمن سلسلة مقالات "وجهات النظر لمؤسسة RAND" التي يقدمها مؤلفٌ درس العديد من جوانب الصراعات المستمرة في سوريا والعراق. يقدم هذا التحليل محاولات لمعرفة ما هو أبعد من العناوين الرئيسية التي غالباً ما تثير الريبة من أجل تحديد الديناميكيات الكامنة وراء الصراعات، وللإشارة إلى الطريقة التي ستتشكل بها هذه الصراعات مستقبل المنطقة، ولدراسة وتدرس كيفية تأثير هذه الصراعات على خلق تهديدات في أماكن أخرى. هذا التحليل هو تقييم للموقف وليس المقصود منه تقديم وصفات للسياسات ومع ذلك، فإنه يشير بالتأكيد إلى الهوة بين الواقع والمأمول بالنسبة للسياسات الأمريكية.

أود أن أعبِّر عن تقديري للمراجعات المدروسة التي قدمها كلٌ من ريك بريـنان (Rick Brennan)، وأندرو ليبمان (Andrew Liepman)، وسيث جونس (Seth Jones). وكما هو الحال دائماً، فأنا مدين بالفضل لجانيت ديلاند (Janet DeLand) لما قدمته من عمليات تحرير متميزة. وبدون تلقي الدعم من مؤسسة RAND ورئيسها، السيد مايكل ريتش (Michael Rich)، فلن يكون بالإمكان الاستمرار في تقديم تلك المجموعة من الدراسات المستقلة.

نبذة عن المؤلف

براين مايكل جينكينز (Brian M. Jenkins) هو أحد كبار مستشاري رئيس مؤسسة RAND ومؤلف العديد من الكتب، الدراسات، والمقالات حول مواضيع تتعلق بالإرهاب، من بينها "هل يحصل الإرهابيون على أسلحة نووية؟" (*Will Terrorists Go Nuclear?*) (2008، Prometheus Books). وكان يشغل في السابق منصب رئيس قسم العلوم السياسية لدى مؤسسة RAND. وبمناسبة ذكرى مرور عشر سنوات على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، افتتح Jenkins جهود مؤسسة RAND التي تهدف إلى تقييم ردود فعل السياسة الأمريكية وتقديم اعتبارات مدروسة لإستراتيجيات المستقبل. تمثل هذا الجهد في كتاب *الظل الطويل لأحداث 9/11: استجابة الولايات المتحدة للإرهاب* (*The Long Shadow of 9/11: America's Response to Terrorism*) (*Brian Michael Jenkins* وJohn Paul Godges)، محرران، 2011).

لمزيد من المعلومات حول هذا المنشور، يرجى زيارة www.rand.org/t/pe163.



www.rand.org

Arabic translation:
"How the Current Conflicts Are Shaping the Future of Syria and Iraq"
PE-163/1-RC (2015)